

اليهود انشروا علينا

د. جمال حمدان



عنا د. محمد

اليهود انثروبولوجيا

د . جمال حمدان

تقديم د. عبد الوهاب المسيري

هذا الكتاب من أهم مؤلفات وبحوث الدكتور جمال حمدان رحمه الله وربما كان من أسباب اغتياله حيث فند فيه إدعاءات اليهود بنقاء سلالتهم وأكاذيبهم عن علاقتهم ببني إسرائيل ويهود التوراة وحاول فيه إثبات أن اليهود المعاصرين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين فترة ما قبل الميلاد وإنما ينتمون إلى امبراطورية الخزر التتارية التي قامت بين بحر قزوين والبحر الأسود والتي اعتنقت الديانة اليهودية في القرن الثامن الميلادي . والجدير بالذكر أن ذلك هو ما أكده بعد ذلك الكاتب الإنجليزي آرثر كويستلر

مؤلف كتاب القبيلة الثالثة

عادل محمد

مقدمة

بقلم : د. عبد الوهاب المسيري

اليهود أنثروبولوجيا ، أي «اليهود من الناحية الأنثروبولوجية» هو عنوان الكتيب الذي بين أيدينا، ألفه هذا العبقري الفلّته، جمال حمدان. ورغم صغر حجم الكتيب فإنه يبلور كثيرا من أفكاره وآرائه ولا يمكن فهمه إلا في إطار منظومته الفلسفية والسياسية ومنطلقاته الفكرية . وهذا الكتيب، مثل كل كتابات جمال حمدان، ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبي للكلمة، أي الدراسة التي يكتبها أحد المتخصصين الأكاديميين دونما سبب واضح ولا تتسم بأى شىء سوى أنها «صالحة للنشر» لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعنات علمية موضوعية تم الاتفاق عليها بين مجموعة من المتخصصين والعلماء.

لتقليل عدد الهوامش سنورد أرقام الصفحات في النص نفسه بعد عنوان الكتاب (إلا كتاب اليهود انلريولوجيا فسنكتفي بالإشارة إلى رقم الصفحة) .

- (١) إستراتيجية الاستعمار والتحرير (دار الهلال) ١٩٦٨ .
- (٢) شخمية مصر (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٩٥ .
- (٣) العالم الإسلامي المعاصر (دار الهلال) ١٩٩٢ .
- (٤) ثلاثية حمدان : د. عمر الفاروق «دار الهلال» ١٩٩٥ . اقتبسنا من هذه الكتاب بعض أقوال جمال حمدان التي وردت في الطبعة الموسعة لكتاب شخصية مصر.

والهدف عادة من مثل هذه الكتابات (التي يقال لها «أبحاث» مع أنها لا تنبع من أية معاناة حقيقية ولا تشكل «بحثا» عن أي شىء) هو زيادة عدد الدراسات التي تضمها السيرة العلمية للأكاديمي صاحب الدراسة، فتمت ترقيته، فالصالح للنشر هو عادة ما يؤهل للترقية. قد تقوم الدنيا ثم تقعد وقد يقتل الابرياء وينتصر الظل وينتشر الظلام، وصاحب «البحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنن وينشر، ثم يكتب ويوثق ويعنن وينشر، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب. ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التي تقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شىء ليزداد لمعانا وتألقا، إلى أن يعين رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشئء الأكاديمي، يتحرك فى عالم خالي من أي هموم انسانية حقيقية - عالم

خال من نبض الحياة: رمادية كالحة هي هذه المعرفة الأكاديمية، وذهبية خضراء هي شجرة المعرفة الحية المورقة النموذج المعلوماتي التراكمي كتيب جمال حمدان ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى، وإنما هي دراسة عميقة كتبها مثقف مصري «صاحب موقف»، لا يكتب إلا انطلاقاً من لحظة معاناة وكشف. وهو بلا شك يتبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنونة، ولكن الآليات هي مجرد أليات، والوسائل لا تتحول أبداً إلى غايات، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتي به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات. فنقطة البدء هي قلق وجودي عميق أدى إلى ظهور مشروع فكري متكامل، والهدف يظل دائماً هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن تحويل الحقيقة إلى عدل.

ولذا فكل دراسات جمال حمدان هي دراسات إشكالية، محاولة للإجابة عن سؤال ما، وتصب كل الأسئلة في مشروع فكري واحد، محوره مصر. فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلاً للأفكار مثل عدد لا يستهان به ممن يسمون بالمفكرين في بلادنا ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وآخر صيحة، عادة من الغرب "أولئك الذين يرون أن العالم هو الغرب

.. ولا شيء سواه، وهي النظرة الاستعمارية التي سادت طويلاً، والتي تركز على أن الدنيا هي أوروبا

Euro-Centric والآن على أوروبا وأمريكا معاً أو الغرب بعامه " ثلاثية حمدان ص 23 " صاحب الفكر هو إنسان قد طور منظومة فكرية تتسم أجزائها بقدر من الترابط والاتساق الداخلي (فهي تعبر عن قلقه وأماله)، ويكمن وراءها نموذج معرفي واحد - رؤية واحدة للكون. أما ناقل الأفكار، فهو إنسان ينقل أفكاراً متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط، وتنتمي كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة. وما يحدث في كثير من الدراسات الأكاديمية أن كاتبها يقومون بنقل الأفكار المتباينة ويعرضون لها، دون إدراك للنموذج المعرفي الكامن وراءها، أو مع إدراك كامل له دون أن يكتراثوا بتضميناته وتطبيقاته، فمهمتهم هي النقل (حتى نلحق بركب الحضارة الغربية) - نقل كل شيء بأمانة شديدة وحياد أشد، وموضوعية متلقية هي في واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية، والقدرة على الاجتهاد. في هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير بما تتضمنه من تفكيك وإعادة تركيب، ويختفى المنظور النقدي، فتتعايش الأفكار المتناقضة جنباً إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجوهرى منها والهامشى. ونقل الأفكار ورصها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيراً عن نقل المعلومات ومراكمتها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتحييزات القابعة داخلها والسياق الذي نبعت منه. ولذا فمثل هذه الدراسات قد تنقل عمداً أو عن غير عمد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سياسياً (كما يقول جمال حمدان ص ٧) وهكذا يتحول المثقفون إلى أعضاء في شركات نقل الأفكار التي لا تختلف كثيراً عن شركات نقل المعلومات أو حتى البضائع.

جمال حمدان لا ينتمى إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكمية التي استشرت تماماً في صفوف الباحثين بسبب سهولة الإنتاج العلمي من خلالها (استبيانات - جداول - تحليل سطحي للمضمون - استطلاع رأى

- أرقام) ولا شك أن غياب المشروع الحضارى المستقل يزيد من انتشار هذا النموذج، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل، ويصبح التلقى المهزوم والإذعان (الموضوعي) للأمر الواقع بديلا لمحاولة رصد الواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته. وقد زحف هذا النموذج على المقررات المدرسية وفلسفة التعليم فى مدارسنا، ومن هنا التلقين، والدروس الخصوصية التي لا تعلم الطالب شيئا، إذ أن المهارة الأساسية التي يكتسبها هي مهارة اجتياز الامتحانات.

إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والأبداع، تدور فى إطار الموضوعية المتلقية، السلبية، العقل عندها آلة ترصد وتسجل، وليس طاقة انسانية مبدعة تعيد صياغة العالم، وهي لا تكتث بالحق أو الحقيقة لأنها غرقت تماما فى الحقائق والوقائع والآفكار المتناثرة، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد وكأنها أشياء مرصوصة، كم لا هوية له، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاص. وكما يقول جمال حمدان، "نحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلي تأخذ فى جملتها الصيغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التي تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانه وتركيبه: فالكل يهود أو صهيونيون، والكل يعيش فى كنف الاستعمار وحمايته، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة... إلخ. وفى هذا الإطار التجريدى الضيق أي الاختزالى أو المتعجل غير المتأنى... تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة تالفة السطحية، وتبدو أحيانا - أكاد أقول - كما لو كنا نطاردها شبحا" (س ٦).

ثنائية تكاملية

وبدلا من هذه المطاردة العنيفة للأشباح غير الحقيقية، يقترح جمال حمدان "دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح، تجسده، ثم تشرحه أصلا وتاريخا، جنسا وتركيبا، تطورا وتوزيعا (صن ٦)، بدلا من الاختزال التركيب؛ وبدلا من التلقى الأبداع؛ وبدلا من التفصيل الفكرية أو المعلوماتية الميتة رؤية متكاملة وحية. تبدأ هذه الرؤية بتعريف (أو إعادة

تعريف) علم الجغرافيا ذاته (وهذا أمر يغيب عن الكثيرين، أن البحث المبدع الأصيل فى مجال العلوم الإنسانية يعيد صياغة حدود العلم ذاتها). فالجغرافيا هي علم تباين الأرض (أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض المختلفة)، هي ولا شك «علم» ولذا فهي تتعامل مع الكم والعلم. يقف معظم باحثينا عند هذه التضاريس أو الحدود المادية الصارمة، ولكن جمال حمدان المبدع الجسور يتقدم ويغامر ليتعامل مع الكيف والخاص فيؤكد أن قمة علم الجغرافيا هو التعرف على «شخصية الأقاليم». يقول ذلك وهو يعرف تماما أنه قد ولج عالما جديدا مختلفا، «فالشخصية الإقليمية» شىء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، إنها تتساعل أساسا عما يعطى منطقة تفردا

وتتميزها بين سائر المناطق، وتريد أن تنفذ إلى «روح المكان» لتستشف عبقريته الذاتية التي تحدد شخصيته الكامنة".

عالم الكم هو عالم الأشباح التي لا بدن لها ولا قوام ولا روح. ولأنها لا بدن لها نجدها تهوم في الأماكن ولا يمكن الإمساك بها. وهي أيضاً لا روح لها، فالروح هي مصدر فردية المرء وتميزه عن غيره من بنى الإنسان. هذا لا يعنى أن الجسد ليس له تميزه، فشكل الجسد وبنيته يختلفان من فرد إلى فرد ومن مجموعة بشرية إلى أخرى. ولكن تميز الجسد ليس بنفس درجة تميز الروح، فالجسد في نهاية الأمر والتحليل والمطاف كم مادي ينتمى لعالم المادة، وقوانين الحركة. بل إن تميزه الحقيقي يأتي من وجود الروح فيه، التي تصوغ الجسد داخل خطاب حضارى متميز (من ملابس ومأكول وزينة) تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر، فهي تخرج بالجسد من عالم الطبيعة وقوانينها العامة وتدخل به عالم الحضارة الإنسانية بثرائها وخصوصيتها.

ولأن الجغرافيا كعلم تتجاوز عالم المادة والحواس المباشرة وليست سجيئة الكم، فهي لا تقبع قط في الآن وهنا وحسب، وإنما تتجاوزهما، فهي تتراعى بعيداً عبر الماضى وخلال التاريخ لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الإيجابية للاقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الإقليمية (شخصية مصر، ص ٢) ولنلاحظ ما يفعله جمال حمدان فهو يرفض أحادية البعد ويتبنى ثنائية أساسية تشكل جوهر رؤيته وكما يقول: "حق لنا أن نبقي تفصيل التفصيل... ولكن أحق علينا كذلك ألا نفرق فيها أو نتوه، وإنما

علينا أن نتجاوزها، نفقز منها وفوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات... وإلى جانب النظرة التحليلية الميكروسكوبية والجغرافية المجهريّة، لاغنى عن النظرة التركيبية التليسكوبية والجغرافية والماكروسكوبية الواسعة الأفق" (ثلاثية حمدان، ص ٢٩). ولكن الثنائية التي يدعو لها ليست ازدواجية وإنما ثنائية تكاملية: كم يتكامل مع كيف - جغرافيا تتكامل مع تاريخ - مكان يتكامل مع زمان - جسد يتكامل مع روح - جزء يتكامل مع كل - خاص يتكامل مع عام.

والتكامل هنا لا يعنى ذوبان واندماج الواحد بالآخر (فهذا يؤدي إلى الواحدية) وإنما يعنى تقاطع وتفاعل يؤدي إلى تفرد وتجاوز لعالم الكم المادي. وإذا أخذنا العنصر الثانى فى الثنائيات فسنكتشف أنه لا ينتمى لعالم المادة المصمتة وإنما ينتمى إلى عالم الإنسان (كيف - تاريخ زمان - روح). وكما يقول جمال

حمدان: "البيئة قد تكون فى بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، وربما تكون الجغرافيا صماء ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها، ولقد قيل بحق أن التاريخ ظل الآن على الأرض، بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان (شخصية مصر، ص 4) بيئة خرساء وجغرافيا صماء. هذا هو عالم الواحدية المادية والدراسات المرضوعية المعلوماتية التراكمية المتلقية) فى مقابل إنسان يذطق وتاريخ يتحدث بلسان فصيح (مثل كتابات جمال حمدان)، والتاريخ هو محاولة الإنسان تجاوز عالم المادة ولذا فهو يلقي بظله عليها - على الأرض، ولكن مادية العالم وموضوعيته لا يمكن للإنسان

أن يبتلعهما ، ولذا فالأرض تلقى هي الأخرى بظلالها على الزمان الإنساني .

المحصلات الرياضية

هذه الثنائية الأساسية هي التي جعلت جمال حمدان يرفض هذا المفهوم المعرفى الذى يشكل الأساس الفلسفى للنموذج المعلوماتى التراكمى والذى قوض دعائم الأبداع الإنسانى وإمكانية الاجتهاد وأحل محله فكر مادى حتمى ممل يقضى على الإنسان - يلقي بظلاله الكثيفة الكنيية عليه حتى يخفيه تماما، أعنى فكرة وحدة العلوم التي أصبحت من المنطلقات المعرفية الأساسية للبحث العلمى فى مصر والعالم. وجوهر هذه الفكرة هو أنه يجب عدم التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، فالاختلاف بين الإنسان والأشياء ليس اختلافا فى الجوهر والنوع والكيف، وإنما هو اختلاف فى التفاصيل والدرجة والكم، ولذا فإن ما يسرى على الأشياء (والظواهر الطبيعية) يسرى فى أساسياته على الإنسان، ولذا فلا بد أن يكون هناك منهج واحد لدراسة الإنسان والأشياء ولسلوك الإنسان والنمل. قد لا يقول دعاة هذا المنهج ذلك صراحة (فمن منا يمكن أن ينكر إنسانيته ببساطة وبشكل صريح وواضح؟) ولكن مثل هذا الموقف متضمن فى منطلقاتهم المعرفية. يرفض جمال حمدان هذا المنطق المادى المصمت المعادى للإنسان : "فالجغرافيا الكاملة الكامئة لا تتحقق فى شىء كما تتحقق فى دراسة الشخصية الإقليمية.. والشخصية الإقليمية ليست تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن أن تخضع تماما للقياس الرياضى والإحصاء، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساسا ... على مادة علمية موضوعية بحتة إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى . وهو لا يجد فى هذه الثنائية أى تعارض، الجغرافيا "فلسفة المكان... فلسفة عملية واقعية... ترتفع برأسها فوق التاريخ.. وتظل أقدامها راسخة فى الأرض. وفى عبارة رائعة تعكس هذه الثنائية وتفرض عليها قدرا من التكاملية - وهو سيد مثل هذه العبارات - يقول حمدان : "فلسفة تحلق بقدر ما تحدد". الجغرافيا فى نهاية الأمر "علم وفن وفلسفة فى ذات الوقت: علم بمادتها، فن بمعالجتها، فلسفة بنظراتها . كل هذا يعنى رفض النموذج المعلوماتى التراكمى (الواحدى المادى)، "فهذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من جغرافيا الحقائق المرصوفة إلى جغرافيا الأفكار الرصينة" (شخصية مصر، ص ٦) وما بين الرص التراكمى والرصانة الإنسانية ثمة فرق شاسع .

ولعل هذا هو السبب الحقيقى لتركه الجامعة، فالنزوع نحو الرص كان قد بدأ فى التصاعد (حتى وصل مؤخرا إلى أبعاد لا يمكن تخيلها). لعله أحس بالكارثة المحدقة وبالتشيئ المطبق، وبأن عالم الكم والاشباح يزداد اقترابا واتساعا فقرّر أن يحمى علمه وأبداعه، لانه عالم لا فلسفة فيه ولا فن ولا أبداع - وإنما محصلات رياضية صماء خرساء لا تقول شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثمة نقطة أساسية هنا تحتاج لمزيد من التأكيد وهى أن فكرة وحدة العلوم بنزعتها المادية المتطرفة (كل الأمور مادية طبيعية خاضعة للقانون الطبيعى الحتمى الصارم) لا تقوم بالمساواة بين كل الظواهر وحسب وإنما تقوم فى نهاية الأمر وفى التحليل الاخير بتسويتها وردّها إلى عنصر مادى واحد. فتختفى الثنائيات والخصوصيات ويختفى عدم التجانس وتظهر المحصلات الرياضية التي تشبه الهامبورجر أو

النظام العالمى الجديد بنزوعه نحو العولمة والكوكبة والكوكلة «نسبة إلى الكوكا كولا» وتحويل العالم إلى سوبر ماركت ضخم، كل الناس فيه سواسية كاسنان المشط البلاستيك المستورد أو المصنوع محليا. جمال حمدان لا يطبق هذا، فعالمه عالم إنسانى ثرى جميل موزق ينبض بالحياة ويتسم بعدم التجانس والخصوصية والتفرد .

وينعكس كل هذا فى مفهومه للوحدة، فهو يرفض الوحدة العضوى المصمتة التي تدور فى إطار الرؤى المادية وتشبئى الظواهر، وتجعلها كلا متجانسا أملس. بل إنه يؤكد البعد الإنسانى فى مبدأ الوحدة ذاته . "إن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتى، فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستوريا هى وحدة

الناس، أي وحدة القومية بمعنى تجانسهم فى المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة... ثم إن الوحدة السياسية وحدة وظيفية، والوحدة الوظيفية فى أي مجال لا تأتى من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبى، فأى جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمنطة فى إنتاجها ومواردها وإمكانياتها إلا أن يكون مجرد تمدد أميبى عقيم؟ وهذا بالدقة ما يعرف بمبدأ «التنوع فى الوحدة» أو «الوحدة فى التنوع» (شخصية مصر، ص 13) .

سيدة الحلول الوسطي

مذا المنهج يتبدى تماما فى رؤيته لمصر، فهى نتيجة تفاعل بين بعدين أساسيين (انتلافا واختلافا): الموضع والموقع، ويين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية، هى فلتة ولكنها ليست وثنا، ولم يكن هو عاشق وثنى لمصر (كما يحلو للبعض تصويره) يتعبد فى محراب مصر، ولذا فهو يرفض السقوط فى ميتافيزيقا المكان المصرى (أو أي مكان آخر) فيقول: "كثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقيقة: (شخصية مصر، ص 8) .

جمال حمدان كان محبا لمصر، والحب أسرار، كما يعرف كل من عرف الحب الحق، وأن تبوح به هو فى حكم المحال، وإن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة! ولذا أن تحاول أن تفهم السر وأن تفصح عنه فى ذات الوقت هو شكل من أشكال الثنائية. ولكن العالم - الفنان - الفيلسوف - الذى يستند عالمه إلى ثنائية تكاملية يعرف ذلك تماما، ولذا فهو يحاول أن يفهم السر وهو يعلم مسبقا أنه لن يكشفه، ولن يسويه، وهو يحاول أن يبوح ولكنه يعلم أن البوح والآفصاح لن يجفقا بحر الحب وعيون المحبة ولذا فالعلم الذى سيؤسسه ليس علما رصديا ترشيحيا برائيا - نقتل الفراشة ثم ندرسها ونفسرها. أو كما يقول: إن الدراسة الإقليمية التحليلية.

تثرى معرفتنا بالمعلومات، غير أنها قل أن تنقبض على روح المكان أو تجسد العبقريّة بإحكام، إنها تشرح الإقليم .. إلا أنها فى غمار ذلك تضحي بروح الإقليم " (ثلاثية حمدان ،

ص ٢٩) تزدهقه تماما. وما يريد أن يؤسسه جمال حمدان هو علم مبنى على الحب، علم يخلق ويحدق، "يتحرك من التخصيص إلى التعميم.. من الجزء إلى الكل" (ثلاثية حمدان، ص ٢٩)؛ يدرك السطح البرانى بتفاصيله والعمق الجوانى بأبعاده! يعرف الوحدة ولا ينكر عدم التجانس. ولذا لا ينبغي لنا أن نبالغ فندعى تجانسا مطلقا، يكفى أن نقول تجانسا نسبياً. وهذا التجانس ليس النقاوة الجنسية" (التي يدعيها العنصريون البيولوجيون الماديون لأنفسهم)، فمن الواضح "أن دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت إلى عروق مصر وصبت فى شرايينها... وليس من الدقة العلمية فى شيء أن نصور مصر بوعاء، جامد يتشكل كلى من دخله بشكله، فليس هناك أطر ثابتة إلى هذا الحد كانت أقباص حديدية (شخصية مصر، ص 32)

كاتبنا ينفر بشكل واضح من النماذج الاختزالية المغلقة والتجانس الواحدى المطلق، عالم الأشباح إياه. ومصر التي يحبها ليست شيئا ماديا، جغرافيا محضا، وإنما هى رقعة يلتقى فيها الزمان بالمكان . هى مجموعة من الثنائيات التي لا تذوب ولا تختزل فى كل واحد مصمت - هى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماما، فهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا، ولكنها تمت أيضا إلى آسيا بالتاريخ وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأساً أكثر من ضخم... وإذا كان لهذا كله مغزى، فهو ليس أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات، وإنما أنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية، بين أبعاد وآفاق واسعة، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى»، تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة، بكل معنى الوسط الذهبى، ولكن ليس أمة نصفاً! (شخصية مصر، ص 8-9) .

الدائرة العربية والدائرة الإسلامية

وسيدة الحلول الوسطى هذه "فرعونية بالجد.. عربية بالأب" (شخصية مصر ص ٨). ولكنها ثنائية تكاملية، وليست ازدواجية "فالآب والجد من أصل وجد أعلى واحد مشترك. غير أن العرب هنا وقد غيروا ثقافة مصر، هم الآب الاجتماعى فى الدرجة الأولى، وليسوا «الآب البيولوجى» إلا فى الدرجة الثانية" (شخصية مصر، ص ٢١3).

فالتعريب والإسلام... "هما أعظم حقيقة فى تاريخ مصر الثقافى والروحى ويمثلان انقطاعا حضاريا، ونقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى (شخصية مصر ص ٢٠٨). وبالنسبة لجمال حمدان يعد هذا الوجود اللامادى هو العنصر الأهم فى ثنائيته التكاملية فبعد التعريب... أصبحت مصر جزءا لا يتجزأ من العالم العربى وعاشت غالبا إقليميا أو رأسا فى رؤيته السياسية وفى ظل وحدته القومية" (شخصية مصر، ص ٢٠٨) والاستعارات أو الصور المجازية التي يستخدمها جمال حمدان تتشبه بولائه العربى على حساب جذوره «المصرية». فنحن نحب الجد ونتذكره، أما الآب فنحن ننتمى إليه، ونسير معه خاصة وإذا كان الآب العربى هو آخر انقطاع فى الاستمرارية المصرية"، خاصة أن

الجد قد ابتعد كثيراً، فمصر الفرعونية (كما يبين جمال حمدان) لم تعد إلا مكدسة فى المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر ، ولهذا فنحن ننتهى إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها، دون أن ينفى ذلك الاستمرارية المحورية فى حضارتنا المادية (شخصية مصر، ص ٢٠٧) . ولذا يحذر جمال حمدان دعاة "الفرعونية" (وغيرها من دعاوى الرجعية التاريخية والوطنيات الضيقة كالفينيقية والأشورية) فالمقهود من هذه الدعوات نفى القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة " (شخصية مصر ص ٢١٤). كما يحذر من دعاة الاستمرارية فى الكيان المصرى "لا ليبرز أصالة ما، ولكن ليقطع من جانب الانقطاع، وبالتالي ليضخم فى البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها (شخصية مصر ص 208-209) .

ومصر التي فى خاطره وفى فمه، وسيدة الحلول الوسطى، تقع فى وسط ثلاث (أو أربع) دوائر مختلفة بحيث صارت مجعاً لعوالم شتى، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى " (شخصية مصر ، ص ٩). وهو فى كتابات أخرى يشير إلى أفريقيا وآسيا باعتبارهما الدائرة الثالثة. هناك الدائرة الرابعة الأعظم والمحيط الأكبر: بقية العالم. ولنبدأ بالدائرة الأولى أي الدائرة العربية. "الإطار العربى حسب تصور حمدان ليس مجرد بعد توجيهى أو إشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته" (شخصية مصر ص 178) ومع هذا لا يرى حمدان أن الوحدة العربية وحدة عضوية مصمتة: "فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل

قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك. وهذا التنوع والتباين فى البيئات إنما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد، وهو لا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الانفصالية الراهنة بحال ولا يشجع الولاءات الوطنية فى وجه الولاء القومى العربى الكبير أو على حسابه (شخصية مصر ، ص ١٣ ١٤) .

ولنتوقف هنا قليلاً لأشير إلى حقيقة غائبة عن الكثيرين ؛ جمال حمدان بلا منازع هو واحد من أهم فلاسفة ثورة ٢3 يولييه فقد بلور رؤيتها للذات وللكون وللآخر، ووضح الأسس الفلسفية لمشروعها الحضارى الثورى، ونظر للصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراعاً سياسياً مصرياً حضارياً له أبعاد دينية، فابتعد به عن العنصرية. ولكن يبدو أن بيروقراطية ثورة ٢3 يولييه لم تكن مدركة لأهمية اللحظة التاريخية ولا لمدى ثراء الإمكانيات لأنها كانت ثورة برجمانية عملية تؤمن بالحقائق والمعلومات والحلول الجاهزة، فضاع ما ضاع، وجلس فيلسوفنا الحزين ينظر لها. بينما كانت أمانة الدعوة والفكر الاشتراكى، تمتلئ بموظفين قادرين على إصدار أي بيان يطلب منهم لخدمة مصلحة الدولة والنظام (أى نظام كما بينت الايام) وبذلك وضع الفكر فى خدمة اللحظة ولم توضع اللحظة فى إطار الفكر .

توضع ولا تختلف الوحدة الإسلامية من منظور حمدان كثيراً عن الوحدة العربية، فهو يرفض المفهوم

العضوى الكاسح للوحدة الإسلامية التي يجعلها تدخل فى صراع مع الوحدة العربية "بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية" . بدلا من هذا يطرح مفهوما «صحيا وصحيحا» للوحدة الإسلامية. توحيد الدين، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين، لتذويب الفروق والفرق الحفرية التي ورثها عن ماض فقد الآن سياق الزمنى ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات؛ التبادل الثقافى والفكرى العام والمزيد من التنسيق الاقتصادى والترابط والتبادل التجارى؛ التضامن السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة.. تلك جميعا هي المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سياسيا... إنها فى كلمة «وحدة عمل» لا «وحدة كيان». بل يمكن أن نضيف: وحدة مصير، إلا أنها ليست دستورية، فى كلمة أخرى: وحدة فكرية لا دستورية. أو هى كما قال عبد الناصر فى دوائره الثلاث دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة . فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصير، والأفريقية وحدة جوار، فالإسلامية وحدة عقيدة (المالم الإسلامى المعاصر ، ص 206)

فلسطين : عين القلب وقدس الأقداس

بعد هذه المقدمات التاريخية الجغرافية، الزمانية المكانية، هذه البانوراما العريضة حان الوقت أن نقرب من موضوعنا وأن نسأل : أين تقع إسرائيل من كل هذا؟ وأين يقع اليهود؟ . يعير جمال حمدان عن الموقف الجيوستراتيجي المصري كله في إيجاز من خلال سلسلة من المعادلات الإستراتيجية على النحو التالي .

- من يسيطر على فلسطين.. يهدد خط دفاع سيناء الأول .

- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط.. يتحكم في سيناء

- من يسيطر على سيناء.. يتحكم في خط دفاع مصر الأخير

- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير.. يهدد الوادي .

وهذه بالضبط «نواة نظرية الأمن المصري» (ثلاثية حمدان ، من ٢٢٨). إن موقع مصر مهدد أبدا وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئي ما بقيت إسرائيل"، خاصة وأنها تريد أن تترث دور القناة نهائيا، بل وتهدف إلى سرقة موقع مصر الجغرافي"، ومن ثم يصبح المبدأ الإستراتيجي الأول في نظرية الأمن المصري هو مرة أخرى : دافع عن سيناء - تدافع عن القناة.. تدافع عن مصر . جميعا، ولا ضمان بالتالي إلا بذهاب العدو " (ثلاثية حمدان ٢٢٨) .

ثم تنتقل إلى الدائرة الأولى حيث نجد مصر "محكوما عليها بالعروية" (بعد أن دخل الجد الفرعوني المتحف)، فهي «لا تستطيع أن تنسحب من عرويتها، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت " (ثلاثية حمدان ، ص ٢٤). بل إنها محكوم عليها بزعامة العالم العربي الذي تقع فلسطين هي منتصفه، ولكن بدلا من فلسطين التي توحد شطريه والتي تمثل نقطة عبور بينهما، تظهر إسرائيل التي تمثل فاصلا أرضيا يمزق اتصال المنطقة المربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها فهي إسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفا مزمنا في مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير (إستراتيجية الاستعمار والتحرير، ١٧5).

ثم تنتقل إلى الدائرة الثانية، أي الدائرة الإسلامية. سنكتشف إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامي، لا جغرافيا فحسب، بل ودينيا أولا وقبل كل شيء. إن يكن العالم العربي هو قلب العالم الإسلامي روحيا وموقعا، فإن فلسطين - كمصر في هذا الصدد - هي أرض الزاوية من العالم الإسلامي طبيعيا. وبالفعل فإنها تقع في صرة العالم الإسلامي تتوسطه - ما بين الصين شرقا والأطلسي غربا وما بين وسط آسيا شمالا وجنوب أفريقيا جنوبا. إن مكانة فلسطين في العالم الإسلامي تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية في أنها من منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضا ودينا: (العالم الإسلامي المعاصر ص ٢٠٨) . ثم تلتحم الدائرتان العربية والإسلامية "فالخطر الصهيوني لا يستهدف الأرض المقدسة في فلسطين فحسب"، وإنما يمتد من النيل إلى الفرات شرقاً بغرب، ومن الاسكندرونة حتى المدينة شمالا بجنوب وهذا وذاك يعنى نصف المشرق العربي بالتقريب، ويضم كل أرض

الإسلام المقدسة بل وكل دائرة الرسالات، ويرادف قلب العالم العربى، وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى" (العالم الإسلامى المعاصر ص ٢١٥). ولذا إن كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية، فهى وحدة الععل السياسى، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنقاذ فلسطين للعروية والإسلام. وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعو إلى «قومية المعركة»، فإن من واجب العالم الإسلامى كما يرى كثيرون أن يتنادى إلى «إسلامية المعركة» (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٦ - ٢١٧) وتتسع الدوائر لتصل إلى الدائرة الأفريقية الآسيوية وهناك أيضاً سنجد إسرائيل أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية فى العالم الثالث... أخطر مناطق التسليح الغربى... ترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان. ويضع جمال حمدان ما يسميه "معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات اقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل:

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .

مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى

مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين % إسرائيل.

رأس جسر ثابت

إسرائيل إذن ذات أهمية خاصة بالنسبة لجمال حمدان وهى ليست مهمة فى ذاتها، إذ تنبع أهميتها من أهمية فلسطين بالنسبة لمصر والعالم العربى والعالم الإسلامى والعالم الآسيوى % الأفريقي والتشكيل الاستعماري الغربى. وحينما يتناول جمال حمدان ظاهرة إسرائيل فإنه يراها باعتبارها ظاهرة غربية بالدرجة الأولى، ثم ظاهرة يهودية بالدرجة

الثانية. يصف جمال حمدان إسرائيل بأنها ظاهرة استعمارية صرفة (إستراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١١٩). أما الصهيونية فهى بكل بساطة السرقة (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ٢٠٩) هى قطعة من الاستعمار الغربى (إستراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١٩١) ولكنها قطعة تتمتع بأهمية خاصة "فهى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريا، ورأس جسر ثابت إستراتيجيا، ووكيل عام اقتصاديا وعميل خاص احتكاري (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧5) ولذا فإن الصهيونية "اليوم هى بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحدي يواجهه العالم الإسلامى المعاصر، تماما كما يواجهه العالم المربى: أكبر من صليبيات العصور الوسطى، وأكبر من كل موجة الاستعمار الأوربي الحديث التي غطته فى القرن التاسع عشر والذي لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الإستراتيجية أو الاستغلالية، إن الاستعمار التوسعى الأخطبوطى الصهيونى إن يكن سرطان العالم العربى، فهو جذام العالم الإسلامى فى الوقت نفسه (العالم الإسلامى المعاصر ص ٢١٥) .

هذه هى بعض الجوانب العامة لهذه الظاهرة الاستعمارية . ولكن جمال حمدان لا يقتنع مطلقا بالعام ولذا فهو يتقدم خطوة للأمام ليدرس خصوصية إسرائيل :

١ - الاستعمار الصهيونى «استعمار عميل»، «فلقد كان من المستحيل أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة

الكاملة من قوى السيادة العالمية، فالاستعمار هو الذى خلقها بالسياسة والحرب، وهو الذى يمدّها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال، وهو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا" (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٦). «ومن هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار، وذلك ثمنا لخلقه إياه وضمانه لبقائه»

إسرائيل استعمار سكنى فى ادرجة الأولى ، فلنن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المدارى فى القرن التاسع عشر، إلا أنها استهدفت وحقت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ. ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخيا، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطانى فى العالم كله (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٢) .

هذه هى الصورة العامة ولكن جمال حمدان يرى أي ثمة خصوصية لهذا الاستعمار السكنى أ) إذا صح أن نميز فى الاستعمار السكنى للمعتدلات بين النمط اللاتينى الذى يضيف المستعمرين إلى الأهالى الأصليين بلا إبادة عامة كما فى أمريكا اللاتينية أو الجزائر، وبين النمط السكسونى الذى يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالى الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما فى أستراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، فإن إسرائيل تقع بالتأكيد فى النمط السكسونى" (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص 172) ب) تتميز إسرائيل بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار السكنى، فهى تجمع بين أسوأ ما فى هذه النماذج، ثم تضيف إليه الأسوأ منه، هى كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدرا محققا من إبادة الجنس، وهى كجنوب أفريقيا تعرف قدرا محققا من العزل الجنىسى. ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنها طردت السكان الأصليين خارجها تماما ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٢ - ١٧٣) .

ج) كما أن إسرائيل ليست عملية سرقة عادية فقد اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات، فالاستعمار الاستيطانى الإسرائيلى عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٤). وإسرائيل بهذا كله أعلى - أم نقول أدنى؟ مراحل الاستعمار السكنى، وهى الاستيطان بالاستئصال والإحلال والإجتثاث والإبادة (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٣)

إسرائيل استعمار توسعى أساسا، «وأطماعها الإقليمية معلنة بلا موارد، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة، ومن «النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة. وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف، ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها إما بالطرد وإما بالإبادة. وبطبيعة الحال، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطانى فى آن واحد، إزاء عدوان آنى واقع وعدوان سيقع

في أي أن (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص 174) .

أدى كل هذا إلى عسكرة المجتمع الإسرائيلي تماما، فقد تعين في حالة إسرائيل، أن تصبح حدودها هي جيوشها، وجيوشها هي حدودها (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٤). كما أن وجودها غير الشرعى رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة، فما قامت ولن تبقى - وهذا تدركه جيدا- إلا بالدم

والحديد والنار. ولهذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها وحياتها، وأمن إسرائيل هو مشكلتها المحورية، أما حلها فقد تحدد في أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها، وهو ما يعبر عنه بـ «عسكرة» إسرائيل وأنها استعمار اقتصادي، فهذا أساسى في كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٢).

متحف الأجناس

إسرائيل - كما أسلفنا - استعمار سكانى مبنى على نقل السكان (اليهود) من الخارج إلى فلسطين، ولذا يصبح هؤلاء اليهود إشكالية أساسية، ومن هنا اليهود انثروبولوجيا . وجمال حمدان - كما أسلفنا - يرفض وحدة العلوم، لذا فعلوم الإنسان مختلفة عن علوم الحيوان والحشرات والأشياء، لذا فهو لا يشيئ ما هو إنسانى، أي لا يراه باعتباره شيئا، أي لا يخضعه لمنطق الأشياء وقوانينها. كما انه لم يشيئ مصر أو العالم العربى والإسلامى، ولم يشيئ الجغرافيا فى علم طبيعى، ولم يشيئ: إسرائيل (ليجعلها إما قاعدة عامة للاستعمار الغربى، أو تعبير فريد عن مؤامرة يهودية شيطانية أزلية)، فهو أيضا لا، اليهود لا يدرس جمال حمدان اليهود باعتبارهم رسل الحضارة النورانيين (الشعب المختار فى الرؤية الصهيونية) ولا هم شياطين ملاعين (قوة الشر الأزلية فى الرؤية المعادية لليهود). فكلتا الرؤيتين تشينان اليهود وتضعهما فى مجال خاص بهن، مقصور عليهم سمي الدراسات اليهودية» وهى تسمية متحيزة لأقصى حد، تنطلق من رؤية اليهود باعتبارهم وحدة (كتلة عضوية من الملائكة أو الشياطين) . يرفض جمال حمدان هذا ويضع اليهود، كما يضع أي ظاهرة أخرى، فى النقطة التي يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع الجزء. فاليهود هم بالدرجة الأولى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية لعامة، ومع هذا فثمة ملامح خاصة فريدة لهم: العودة اليهودية إلى فلسطين ليست عودة توراتية أو تلمودية أو دينية وإنما هى عودة... إلى فلسطين بالاغتصاب، هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى، أي استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم. تمثل جسما غريبا دخيلا مفروضا على الوجود العربى، أبدا غير قابل للامتصاص... فهم ليسوا عنصرا جنسيا في أي معنى بل جماع ومتحف حى لكل أخلط الأجناس فى العالم كما يدرك أي أنثروبولوجي (ص17) إن يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أي أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة" (ص ١٨١).

هذه هي الصورة العامة، ولكن هناك دائما الخاص، "وإذا كان ثمة تحفظ ما، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط" (ص ١٨١). وبعد أن يبين هذه المراحل وتلك الدرجات يخلص إلى "أن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوروبيين والأمريكيين، بل هم في الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة لحما ودما، وإن اختلف الدين. ومن هنا فإن اليهود في أوروبا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجنباء دخلاء يعيشون في المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة، لا يفرقهم عنهم سوى الدين (س ١٨٣).

هذه هي النتيجة النهائية، ولكنه لا يصل إليها من خلال المرافعات القانونية والمنطقية الرنانة أو من خلال لى عنق الحقائق، أو من خلال أنصاف الحقائق (التي يسمونها «الأكاذيب الحقيقية»، وإنما من خلال دراسة متعمقة لكل التفاصيل الممكنة، أنظر - على سبيل المثال - دراسته لشكل الرأس باعتباره أهم المؤشرات على النقاء، أو الخلط (ص ١٤٢ - ١٤٦). يعرض حمدان للقضية من خلال بناء مذققي واضح يختبره دائما من خلال القران والشواهد المتعينة المختلفة. وهو في دراسته لا يكف عن الإشارة للسياقات التاريخية المتعددة وتنوعها. ففي أقل من صفحة واحدة (ص ٦٠) يشير إلى تاريخ الصراع بين الدولتين العبرانيتين (٥٨ - ٦٠) وإلى يهود الجزيرة العربية (الذين يتناولهم في عدة صفحات أخرى فيدرس تاريخهم ص ٦٣ وتوزيعهم ص ١٠٤) وأعدادهم ص ١٠٥ وخروجهم من العالم العربي). والهدف من هذه السياقات التاريخية والأبعاد المركبة المتنوعة هو الخروج بالظاهرة اليهودية من سجن الدراسات اليهودية ليدخل بها في سياق العلم العام. فاليهود جزء من تواريخ التشكيلات الحضارية التي يوجدون فيها ولا يوجد أي داع لعزلهم عما حولهم من ظواهر. فكما أن إسرائيل استعمار استيطاني إحلالي شأنه شأن أي استعمار استيطاني إحلالي يمكن دراسته داخل إطار حركات تاريخ الاستعمار الغربي فاليهود هم أيضاً بشر، يمكن دراستهم داخل إطار حركات تواريخ المجتمعات المختلفة شأنهم شأن كل البشر. وهو بذلك يسترجع لهم إنسانيتهم التي استبعدوا كل من الصهاينة والمعادين لليهود الذين صوروا اليهود، على سبيل المثال، على أنهم في حالة شتات دائمة، يهيمون على وجههم من بلد لآخر يرفضون الاندماج في مجتمعاتهم. لا يقبل جمال حمدان مثل هذه الأساطير الشائعة، ويبين أن اليهود لم يقاوموا عمليات صبغهم بالصبغة الهيلينية كما تزعم التواريخ الصهيونية. لا يمكن إنكار أن بعضهم قد قاوم بالفعل بل ونشأت الدولة المكابية للتصدي للنزعة الهيلينية، إلا أن الأغلبية الساحقة قبلت بهذه الحضارة الهيلينية "وانتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى في كل العالم الهيليني البيزنطي، هذا الانتشار لم يكن تعبيراً عن شتات أبدي وتحوال لا نهاية له، وإنما هو استجابة إنسانية عادية لأوضاع حضارية اجتماعية. ولذا نجد أن في مصر قَدَر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود (ص ٦٦)، هذا قبل سقوط الهيكل، أي أن سقوط الهيكل لم يكن هو سبب تشتت % انتشار اليهود وإنما هو نتيجة اندماج اليهود في الحضارة الإغريقية، شأنهم شأن الشعوب الأخرى. من المعلومات المتناثرة إلى الأنماط المتكررة لا يرص جمال حمدان المعلومات والحقائق والوقائع

رصا، ولا يراكمها وكأنها قطع من الأحجار الصماء، فهو دائم البحث عن أنماط، ذات معنى ومغزى، كامنة في التفاصيل، وهو لا يتناول مادته العلمية الخام بشكل مباشر وكأن عقله صفحة بيضاء ملساء. ٣١ وإنما يواجهها من خلال إشكالية محددة، فبعد أن يأتي بحشد هائل من المعلومات عن أعداد اليهود في العالم وتوزيعهم، يطرح السؤال التالي: "ماذا تعنى هذه الأرقام وتلك التوزيعات؟، وما هى "ملامح الصورة العامة . الإجابة هى أن "أوربا عمليا هى الوطن المطلق لليهودية العالمية، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا. وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطارا وأحجاما من الشرق إلى الغرب: دائرة شرق أوربا ومركزها بولندا الروسية، ودائرة غرب أوربا ومركزها الراين وفرانكفورت، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك " (ص ٩٤).

هذا هو الإطار العام، ولكن داخل الإطار العام توجد أنماط أقل عمومية فالصورة بعد الحرب العالمية الثانية غيرها قبلها، واليهود في الإطار الكوكبي هم ظاهرة قزمية " (ص ٩٦). وانتشار اليهود في أنحاء العالم ليس انتشارا كميا أو تمدا أفقيا وإنما يتبع هو الآخر نمطا محددا، فهم ليسوا منتشرين على وجه العموم بل يلاحظ اتجاههم نحو سواحل المحيط الأطلسي شرقية وغربية. فإذا ما أضفنا إلى ذلك نمط التوزيع في أمريكا الجنوبية ثم مركز يهود شمال أفريقيا تقليديا في المغرب، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط، بعد أن كانت حتى القرن الماضى تتركز أساسا في القلب القاري للعالم القديم " (ص ١٠٩) وينتقل حمدان من أنماط التوزيع في العالم على وجه العموم إلى أنماط التوزيع داخل كل قطر، فيبين أن "اليهود بالدرجة الأولى سكان مدن، وسكان مدن كبرى بالدقة، ثم هم إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل

والامتياز. وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها، وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولا تتبلور في وقتنا هذا والأمثلة تغني عن الحصر، ولعل أوضحها في الذهن المثال الأمريكي (ص ١٠٩). وأرجو أن يتأمل القارئ بناء هذه المقطوعة «هم سكان مدن» نعم ولكنها ليست أي مدن وإنما «مدن كبرى»، وهي ليست مدن كبرى وحسب وإنما «عواصم». ثم يضع يدنا على النمط الذي يربط التعميم المجرد بالتفاصيل المتعينة ويهود دولة ما هم عادة «يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها». وهكذا يكتسب النمط ألوانه وتفصيله، ثم تنتهي المقطوعة بالإشارة إلى تاريخ اليهود قديما وحديثا، وأخيرا إلى المثال الأمريكي المتعين. يبين حمدان أن اليهود يقيمون أساسا في نيويورك وشيكاغو وبضعة مدن أخرى. ويتناول نيويورك ذاتها بالدراسة التي يسميها (بروح الدعابة التي لا تفارقه، رغم نبرته الجادة) "تل أبيب الكبرى، بل إنها إسرائيل الكبرى". ثم يعود إلى النمط مرة أخرى فيقول: إن عدد اليهود في المدن يتناسب تناسبا طرديا مع أحجامها، فهم أقوى ما يكون في نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو، بينما لا

وزن لهم مثلاً في بوسطن (ص ١١٢). ثم يتبنى نبرة القاص ويسأل : "هل تريد مزيداً من الأمثلة؟" وهو بالطبع لا ينتظر الإجابة فيعطي قارئه عشرات الأمثلة: تورنتو ومونتريال وباريس ولندن وتونس واستنبول وجوهانسبرج وسيدني، أي أنه يختبر بنفسه النمط العام الذي طرحه بالإشارة إلى كثير من القرائن والتفاصيل ليبين مقدرته التفسيرية وليكتسب له الشرعية التي يستحقها ثم يصل حمدان إلى فلسطين، دائماً فلسطين، مركز اهتمامه وسرانشغاله باليهود: حتى في فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن: فمنذ بضع سنين كان ٧٥.٩% من سكان إسرائيل يتكدسون في المدن والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قومية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية urbanism . ولكنها ببساطة «حالة مدن» العالم انصبت واستقطبت في دولة: (ص ١١٣). قد تتفق معه وقد تختلف، وقد تقبل ما يتوصل له من نتائج وقد ترفضه. قد ترى طريقة ربطه بين التفاصيل وتجريده للأنماط متسقة قليلاً أو كثيراً، وقد تذهب إلى أن نبرته حادة قليلاً أو ربما أكثر من اللازم، قد تقول إن استخدام عبارة «حالة مدن» انحراف عن المنهج العلمي المحايد أو البارد، قل ما شئت ولكن لا يمكن بعد ذلك أن تقر عينك بالموضوعية المتلقية وعمليات رص الإحصائيات وتحليل المضمون ولا تملك إلا أن تفكر فيما يقول، فقد شحذ ذهنك وحفز عقلك وعلمك كيف تنفض عن نفسك غبار التلقي، وها أنت ذا تجد نفسك منشغلاً مثله بالتفسير والبحث عن أنماط لها معنى ودلالة داخل التفاصيل التي تبدو وكأن لا معنى لها ولا دلالة، أي أنك الآن منشغل بالحقيقة لا بالحقائق والوقائع، وها أنت ذا تدرك أن الحقيقة لا توجد في الحقائق وإنما في الأنماط التي يستخلصها عقل الباحث ، وأن عليه (إن كان حقاً محباً للحقيقة وليس عبداً للحقائق) أن يكدر ويتعب ليصل إلى من يحب .

اليهودى كتاجر

أشرنا إلى رؤية حمدان لتوزيع اليهود في المكان، ولكن نظل الصورة في حاجة إلى مزيد من الظلال، حتى لا نقع في عالم الأشباح العامة، حني ننقل من مجرد النيجاتيف أو أشعة إكس التي لا تنطق إلا بالقوانين العامة المادية (الخاضعة للقياس) إلى اللوحة المبدعة التي رسمتها يد إنسان ولذا فهي قادرة أن تنطق بالعام والخاص، وأن تحيط بالكم والكيف والزمان والمكان، وربما يقاس بدقة وبشكل مباشر وبما لا يمكن الوصول إلا من خلال استراتيجيات إدراكية مختلفة بسبب تركيبته . لإنجاز هذا يشير جمال حمدان إلى توزيع اليهود المهني والوظيفي ويلاحظ ابتعادهم عن الزراعة أولاً وعن الصناعة إلى حد بعيد (ص ١٠٣). كما يلاحظ أنهم يتركزون في الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية. إلخ (من ١٠٤).

ثم بعد أن يحدد الأطروحة بهذا الشكل العام ينطلق في الزمان والمكان ويبين أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودي زراعي واحد يستحق الذكر " وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة، فقديمًا كانت كلمة

اليهودي مرادفة لكلمة التاجر.. وحديثا يحتشد اليهود في الوظائف الحرة كالتطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد، على سبيل المثال، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين في ولاية نيويورك.. من اليهود" (س ١١٥) .

بل إن مستوى التعميم يتجاوز اليهود ليصبح نمطا عالميا، واليهودي بهذا كله قد أصبح مركبا اقتصاديا - اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة كذاك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين «يهود جنوب شرق آسيا»، وكذلك يوصف الهنود في مدن ساحل أفريقيا الشرقية «يهود شرق أفريقيا (ص ١١٦) ، أي أنه يخرج بالنمط من عالم اليهود إلى عالم الإنسان ككل، وتصبح الظاهرة اليهودية جزء من العلم العام، علم اجتماع الأقليات التجارية الهامشية .

ولا ينسى جمال حمدان البعد الديني. فرغم تأكيده أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس صراعا دينيا (على الأقل من طرفنا) إلا أنه لا يسقط المكون الديني. فكما أن الدائرة إسلامية هي إحدى الدوائر الأساسية التي تقع مصر وفلسطين في وسطها فإن العقيدة اليهودية تشكل إحدى الدوائر الأساسية للصهيونية وإسرائيل. ولذا فهو يتناولها بالدراسة ويصفها "بأنها وحدها من بين الأديان السماوية، هي التي تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية في أنها ديانة «مقفلة مغلقة» ي تحجم عن التبشير وتجتر تفسها أبدا). واليهودية "قد تكون عالمية بحكم توزيعها، ولكنها في واقع الأمر أبعد شيء عن العالمية بحجمها القرمي الضئيل"، وبحكم أن اليهودية ديانة جغرافية (مقصورة على وطن) وعنصرية (مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه) (ص ٩٧). وعلى الرغم من أن جمال حمدان لا يشير إلى ماكس فيبر هنا إلا أنه من الواضح أنه قد قرأ بعضا من أعماله (ويشير له بالفعل في بعض دراساته الأخرى) مما يبين مدى اتساع أفقه الثقافي والتفسييري .

ونفس الاهتمام بالدين كمقولة تحليلية يظهر في رؤيته للانتماء ، فعلى عكس ما يقال عن النزعة الجيتوية عند اليهود فإن جمال حمدان يبين أن "اليهود أكثر تعرضاً للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية (م ١٧٠). ومع "تسارع واطراد العلمانية والانصهار لابد وأن يتناقص اليهود إلى أن يختفوا . وعلى عكس ما يتصور البعض هنا في العالم العربي "لا يؤخر هذا الاختفاء إلا ضد السامية أكثر من أي عامل آخر" (ص ١٧١) . ومن هنا الصهيونية ، ومن هنا الدولة الجيتو (س ١٧٢). وهذا التحليل يبين التزام جمال حمدان بالتعددية السببية ورفضه أن يعطي أولوية سببية لعنصر واحد. فظهور الدولة الصهيونية هو ولاشك جزء من الهجمة الاستعمارية ضد المنطقة، ولكن هناك أيضا عناصر خاصة بالجماعات اليهودية مقصورة عليهم ساعدت على تأسيس هذه الدولة. ولذا لابد وأن تُرصد هذه الدولة لا في إطار هذا العنصر أو ذاك وحسب، وإنما من خلال كل العناصر .

حجر أم رشاش متطائر؟

يتحرك جمال حمدان من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام، ولذا فهو حريص على أن يبتعد أسلوبه عن الصيغ اللغوية الجاهزة ليبحت عن كلمات وعبارات محددة تعبر عن المنحنى الخاص لرؤيته . ولذا نجده يكد ويتعب ليعثر على الكلمات الدقيقة الدالة (جغرافيا صماء) ويتلاعب بها لإبراز المعنى المطلوب (الرص والرصانة) أو الجمل المتناقضة (عدوان آني واقع وعدوان سيقع في أي آن) . وهناك النبذة الخاصة في خطابه، فهو قادر على أن يتوقف عن السرد ليتوجه للقارئ مباشرة. ويمكنه أن يتحدث بلهجة العلماء ثم يرصع هذا الكلام بعبارات جميلة في ذاتها، كما أنه مصري صميم في ولانه شبه الكامل للنكتة، ولكنها نكتة توظف دائما في خدمة الرؤية ؛ انظر على سبيل المثال هذه الفقرة من شخصية مصر " أما الانفتاح الذي يرادف الانتفاخ، فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة في أعلى السلم الاجتماعي " (ثلاثية حمدان ، ص ٢٢) . هذا التلاعب بالألفاظ، الذي هو في جوهره شكل من أشكال الدعابة، يعبر بدقة بالغة عن جانب من الواقع المصري. فالأسلوب الخاص هنا ليس زخرفة وإنما تعبير عن ثنائية حمدان التكاملية الخصبة .

وهناك أخيرا استخدامه للمجاز. واللغة المجازية ليست زخرفة كما يتصور البعض، فالمجاز هو وسيلة إدراكية وطريقة للتعبير عن إدراك مركب تعجز اللغة النثرية عن التعبير عنه. ولأن إدراك جمال حمدان للواقع مركب وفريد إنه كثيراً ما يلجأ للمجاز. وهذا في حد ذاته تعبير أيضاً عن رفضه لفكرة وحدة العلوم. فاللغة الرياضية العامة المجردة التي تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية. ففي وصفه لتوزيع اليهود في العالم يبين أنه "ليس صحيحاً أن «تحت كل حجر في العالم يهودياً» ، ويأخذ استعارة الحجر ويقترح استعارة أخرى مشتقة منها ولكنها تقف بالنسبة لها على طرف النقيض : "الأصح أن نقول أن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطائر في معظمه يتحول أحيانا إلى تراب رمزي بحت" . وهكذا يتحول الحجر الصلب إلى «رشاش متطائر» ثم إلى «تراب (ص ١٠٥) . وفي مكان آخر يتحدث مرة أخرى عن توزيع اليهود فيقول الصورة المجازية ليست نهر مجره مرصعة عالميا بمستعمرات اليهود، ولكنها يمكن ان تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هناك وهناك " لقد استخدم هنا نفس الآلية تقريبا، فقد أخذ صورة "نهر المجره" ليحوّله إلى "منثور من النوى والنويات السديمية" (ص ١٠٥)، بدلا من النور الذي له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز

أثر جمال حمدان

وهناك قضية خاصة ولكنها عامة (غير ذاتية تماما وغير موضوعية تماما) في ذات الوقت (ثنائية حمدانية) وهي علاقتي ومدى تأثري به . قرأت هذا الكتاب حينما كنت أكتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ؛ رؤية نقدية والتي صدرت عام ١٩٧٥ . كنت أحس نحوه بالإعجاب الشديد سواء في أسلوب كتابته أم أسلوب حياته هذا الزهد العلمي الشديد، هذا الإعراض عن الدنيا الذي مكنه

من إنجاز بعض جوانب مهمة من مشروعه المعرفي الضخم (ولعل هذا هو الذي شجعني على الاستقالة من الجامعة لأنجز مشروعي المعرفي) . ومن المفارقات التي تستحق التأمل أن هذا الأستاذ الجامعي الذي ترك الجامعة، والمثقف الذي اعتزل الحياة الثقافية قد ألقى بظلاله على كل من الجامعة وحياتنا الثقافية.

ولكن رغم الإعجاب الشديد هذا يبدو أنني حين قرأت كتابه لأول مرة كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأني في هذا شأن أي باحث، ولكن يبدو أيضا أنني استوعبت في ذات الوقت منظومة فكرية كاملة ثم استبطلتها تماما دون أن أدري غير أنني لم أدرك هذا إلا مؤخراً بعد أن انتهيت من كتابة موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية نموذج تفسيري وتصنيفي جديد (والتي استغرقت معظم الفترة السابقة من حياتي) وجلست لأتأمل في مصادر فكري. وقد تزامن هذا مع كتابة هذه المقدمة، فهالني حجم تأثري به في طريقة تفكيره. لقد جاء في كتابه الكثير من المعلومات والوقائع فأخذت منها ما أخذت، واستبعدت ما استبعدت، ثم تبذلت المعلومات وتحورت، كما تتبدل المعلومات وتتحوّل، ولكن بقي ما هو أهم بقي فكره ورؤيته ومنهجه. فمن الواضح أنني تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية، وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس في عملية التفكير العلمي. ومن أهم ما تعلمته منه هو الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها في نطاق العلم الإنساني العام ووضعها في عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة وليست ظاهرة واحدة مغلقة تتسم بالوحدة. ولكن أهم ما تعلمته منه وهو ما تعلمته من أساتذتي (مثل د .

إيميل جورج - د نور شريف - د. ديفيد واير) لريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل في المعلومات وتفسيرها لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تكتشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة وكيف تجرد الحقيقة من الحقائق ولا أدري هل تعلمت منه أيضا شيئا من الصلابة والقدرة على المقاومة؟ .

أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده في سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين من كتاباته، وإنما هو هناك بين السطور، وهذا هو أعمق الأثر. ولكن مع سيطرة النموذج التراكمي المعلوماتي، أهملت أهمية هذا النوع من التأثير فمجال البحث العلمي بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة، هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها، ولذا فحينما يدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادة ما يبحثون دائما عن بضعة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثر (وهكذا عدنا مرة أخرى لشركات النقل!) . وقائمة المراجع فيما يكتب من دراسات تدور في إطار هذا النموذج المعلوماتي، مما يعني أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف به لأنه مثل هذا الإسهام لا يوجد في سطر بعينه أو في صفحة محددة، وما يوجد بين السطور لا يقاس ولا يمسك بالحواس الخمس ولذا فهو غير موجود من منظور كمي معلوماتي.

كما أنني يمكنني أن أثير قضية أخرى وهي لِمَ لم يؤثر جمال حمدان في هؤلاء الذين يكتبون دراسات في

نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكري. يمكنني القيل أن النموذج المعلوماتي التراكمي قد سيطر تماما وحول كل شيء (الآراء والرؤى والأحلام والآلام) إلى معلومات. ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية، يتناولها بنهم الكتاب المعلوماتيين . وأعتقد أن معظم ما يكتب هذه الأيام يكتب صدورا عن هذا النموذج، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يقرأ الآن يقرأ بنفس الطريقة، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق !

والتكريم الحقيقي لجمال حمدان لابد وأن يأخذ شكل محاولة التوصل لا إلى ثمرة فكره وإنما إلى طريقة تفكيره، لا إلى ما قاله وذكره وأورده من معلومات وحقائق ووقائع وإنما كيف توصل إلى ما توصل إليه من نتائج وكيف نجح (أو أخفق) في توصيله . ولابد وأن نكتشف طبيعة مشروعه البحثي ونبين ما أنجزه منه وما لم ينجزه - فهناك أجندة بحثية

بين السطور علينا أن نصل إليها ونبينها للأجيال . إن جمال حمدان وضع أساس خطاب تحليلي جديد، لم يلتزم به هو نفسه أحيانا، وهذا هو شأن الرواد دائما. علينا أن ندرس هذا الخطاب ونصل إلى برنامج بحثي يحوي الإشكاليات الأساسية التي طرحها جمال حمدان، ثم نكمل المسيرة وبذا لا تضيع حياته هدرًا وتكتسب عزلته معنى، ويتحول إنجازه الفكري الشامخ من مجرد مجموعة أفكار مرصوفة وكتابات مصفوفة تسحب من الخزائن في المناسبات العامة ليكرم اسم صاحبها ثم تعاد مرة أخرى، لتستمر في الرقاد . يتحول هذا الانجاز الشامخ إلي رصيد حي يضاف إلى رصيد هذه الأمة الفكري فيزيدها علما وحياء . والله أعلم

دمنهور والقاهرة ٥ فبراير ١٩٩٦ ١٦ رمضان ١٤١٦

اليهود انثروبولوجيا

"إن العرب واليهود أبناء عم من الناحية العنصرية" بهذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل بن الحسين الهاشمي الذي سيصبح ملكا على العراق فيما بعد ، يخاطب القاضي الأمريكي اليهودي فيلكس فرانكفورتر في ١٩١٩ . وهو بعد أن يضيف إلى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم وفيما تمكنوا من القيام به في طريق تحقيق أهدافهم القومية ، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهي "أننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا في عودتهم إلى البلاد... وهناك مجال في سوريا يتسع لنا جميعا". ويعود نفس المتحدث إلى نفس الفكرة ليؤكد لها في مؤتمر الصلح بباريس في نفس العام فيعلن أن "هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود ، كما أنه ليس ثمة تعارض واضح في الصفات المميزة للشعبين" .

وبعد نحو نصف قرن من هذه التصريحات التي تصدر على مستوى القيادة السياسية ولكنها تتكلم ، أو تسمح لنفسها أن تتكلم ، كما لو بلسان الأنثروبولوجيين ، تعود نفس النغمة لترتفع على نفس المستوى وب نفس اللسان ، حين أعلن السعودي فيصل أثناء زيارته للولايات المتحدة في العام الأخير انه لا يمكن شيئا ضد اليهود (يقصد تمييزا لهم عن الصهيونيين) "لأننا أبناء عمومة في الدم" وهذا حسين الاردن آخر الهاشميين يأتي من بعده ليعلن أخيرا جدا أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة في التاريخ جنبا إلى جنب

وفي صداقة وتعاون كأقارب وجيران .. عميقة إذن هذه الفكرة ، فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود ، ومنتشرة متفشية هي إذن بين الكثيرين لا في الخارج فحسب ولكن بين العرب أنفسهم ، بل وعلى مستوى قياداتهم ، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دعية فرضت أو فرضت نفسها عليهم. ولاجدال أن لهذه الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية التي يمكن أن تترتب عليها ، كما فعل فيصل بن الحسين في الواقع حين رحب باليهود في سوريا في النص السابق! فرغم أن من الثابت المقرر في القانون الدولي أن ترك شعب لوطنه آلافا سحيقة من السنين لا يمكن إلا أن يحرمه كل حق في المطالبة بالعودة إليه الآن ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة إعادة تشكيل الخريطة السياسية للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضي الغابر ، الأمر الذي يمكن أن يقلب صورة الدنيا رأسا على عقب بشكل ساخر بل سخييف لايتصور ، نقول رغم هذا كله فإن فكرة قرابة العرب واليهود في الدم قد يمكن أن تلقى بعض ظلال على قضيتنا المصيرية الأولى في فلسطين ، وقد يمكن أن تفتح بابا للحلول الخائنة أو الخائنة، سيئة النية أو ساذجة النية .

وليس هذا مجرد استدلال أكاديمي أو أسقاط منطقي ، وإنما هو بالفعل مانجده في أكثر من دائرة من

الدوائر العربية وغير العربية . فليس بعيدا مشروع الملك عبدالله، الذى اقترحه بنفسه على بريطانيا حلا لمشكلة فلسطين فى الأربعينات من انشاء "مملكة سامية" يكون هو على رأسها ويكون لليهود فيها حكمهم الذاتى! وفى السنوات الأخيرة ترددت فكرة "الاتحاد الفيدرالى السامى" بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد صهيونيين .

ولعلنا أن نكتفى منها هنا بذكر مشروع الفريد ليلينثال فى كتابه الأخير الذى يقترح فيه ان يعود الصهيونيون الإسرائيليون الذين من أصل اوروبى إلى أوروبا ، ويبقى الإسرائيليون الذين هم من أصل شرقى فى فلسطين ، وذلك مع عودة عرب فلسطين اليها ليعيشوا معهم فى دولة واحدة جديدة، تدخل مع الوقت فى علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية متطلعة إلى اتحاد اقتصادى مع الأردن وغزة و متجهة فى النهاية إلى "اتحاد سامى" كبير!

لسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات أو نقدها، فكل حل لايعيد الوضع إلى ماكان عليه قبل ١٩٤٨ بل قبل ١٩١٨ مرفوض بلا نقاش، وكل حل لا يزيل إسرائيل من الوجود لامحل له من البحث العلمى، ولكن سؤالنا المحورى هاهنا هو الأساس الجنسى المزعوم فى تلك المشروعات : أحقا نحن اقارب اليهود وأبناء عمومهم ؟ على أي أساس علمى ذلك، وأي دليل تاريخى ينهض بذلك ؟ واضح أن المجال هو مجال الآنثروبولوجى والآنثروبولوجيا - علم الإنسان - بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق

دينية وبما يقيس من أجسام وصفات تشريحية ووراثية ... إلخ .

ونحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلى تأخذ فى جملتها الصبغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانهم وتركيبهم : فالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيشون فى كنف الاستعمار وحمايته ، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة .. إلخ . وفى هذا الإطار التجريدى الضيق ، أو المتعجل غير المستأنى - الذى قد يكون عمليا ومفهوما فى ذاته - تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة باللغة السطحية، وتبدو أحيانا أكاد أقول - كما لو كنا نطارده شبحا! ونحسب أننا لهذا كله بحاجة إلى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشرحه أصلا وتاريخا، جنسا وتركيبا، تطورا وتوزيعا... إلخ .

ونحن هنا سنبدأ بالأصول القديمة فى التاريخ الجنسى والدينى، ثم نتتبع انتشار اليهود فى العالم هجرات وتوزيعا ، حتى إذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين الآنثروبولوجى لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التى تجرى فى عروقهم، وإلى أي حد ينتمون إلى أصولهم الأولى ومن ثم إلى أية درجة من القرابة ينتسبون إلى العرب أو ينتسب العرب إليهم .

وفى تقديرنا أن مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورة شرطية لأى فهم عربى سليم أو عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الأمر بالدعايات الصهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وابتسار الحقيقة

العلمية ذاتها. كذلك لابد أن نبادر من البداية فنحذر من أن كثيرا من الكتابات العلمية البحتة فى الموضوع ينبغى ان تتناول بحذر واحتراس شديدين لأنها تعتمد - فعلا إن لم تعترف علنا على المصادر اليهودية والصهيونية أساسا، وهى من ثم قد تنقل عمدا أو عن غير عمد وجهات نظر محددة ومحسوبة سياسيا ونحن من جانبنا على صعوبة المحاولة نفسيا وقوميا لن نترك لتحيزنا السياسى الحق والواجب أن يتدخل فى معالجة علمية موضوعية، لا لسبب إلا لأن الدراسة العلمية الخالصة توازر - كما يتفق ولحسن الحظ - القضية السياسية وتدعمها ولا تتعارض معها فى الجوهر والصميم. إن الحق والحقيقة - كما سنرى - فى جانبنا على حد سواء .

فى التاريخ القديم

أول مانسمع عن اليهود فى التاريخ مع إبراهيم - أبى الأنبياء إبراهيم الخليل الذى ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى أور . ومن قبل كان إبراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك "الخان البشرى" الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف كإقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها ولود ، يقذف بالموجة تلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة .

ففى حوالى ١٨٠٠ ق.م. هاجر إبراهيم وقومه ، فى دورة عكس عقارب الساعة، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا إلى حوران ثم إلى فلسطين . وهناك سيولد له إسحق ، ولإسحق سيولد يعقوب ، ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الأسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة فى التاريخ والتوراة .

ولكن هجرة إبراهيم إلى فلسطين وإن كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فإنها لم تكن الاخيرة، ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد ، وإنما على عدة دفعات جاءوا ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات . والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن ١٤ ق م .

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية - أو بالأحرى تسميات - اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات : إسرائيل والعبريون واليهود . والأولى نسبة مباشرة إلى إسرائيل، الاسم البديل ليعقوب . أما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان إلى كنعان حيث "عبروا" النهر - نهر الفرات أو نهر الأردن لاندرى أيهما المقصود تماما - فسموا بالعبرانيين. ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة Habiru, وعند البابليين Khebirru ولو أن هذه وتلك تعنى ، فى رواية، البدو أو اللصوص أو المرتزقة كما وصفهم اعداؤهم فى كنعان إشارة إلى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم . أما التسمية باليهودية فتدل اصلا على أبناء يهودا Judah, Jehudah أحد أبناء يعقوب، الذين أصبحوا يمثلون البقية المهمة من بنى إسرائيل بعد "الأسر البابلى"، فصارت تطلق فيما بعد على الإسرائيليين جميعا. واسم يهودا نفسه قريب من اسم إله الشعب يا هو Jahveh, Jehovah التى قد تكون بدورها تحريفا للنداء العربى ياهو (؟) .

كيف وجد اليهود فلسطين ؟ وجدوها أرض كنعان أساسا، نسبة إلى سكانها الكنعانيين . والكنعانيون فى التوراة أبناء كنعان بن حام بن نوح ، وهم أول من سكن فلسطين على أرجح الآراء. وفى الدراسات السامية القديمة أن الكنعانيين - هم الآخرين قبيلة سامية من الساميين الشماليين ، جاءت أصلا من

الجزيرة العربية منذ 2500 ق.م. وفي رواية أخرى منذ ٣٥00 ق.م وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ ألف أو ألفي سنة وأقاموا بها حضارة راقية . كذلك فإن جزءا من الكنعانيين كان قد رحل منها إلى الساحل اللبناني حيث عرفوا بالفينيقيين.

ومعنى أرض كنعان هو الأرض المنخفضة . إلى جانب الكنعانيين في فلسطين كان ثمة كوكبة أخرى من القبائل السامية الصغرى كالإدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم أرض كنعان، خاصة حول جنوب البحر الميت . وثمة كذلك كان العموريون بعيدا إلى الشمال ، وهم أولاد أنك في التوراة، وكانوا قد سيطروا على جزء كبير من فلسطين قبل الزحف المصري الفرعوني نحو الشمال حوالي ١٦٠٠ ق . م وحتى نستكمل الصورة، يحسن أن نذكر أيضا.

خارج فلسطين ولكن بجانبها توا الأراميين الذين استقروا في سوريا كموجة سامية منذ القرن 14 قبل الميلاد أي في تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين . ولا يبقى لنا الآن في التتابع التاريخي سوى الفلسطينيين Philistines الذين يعدون - وحدهم تقريبا من بين كل العناصر والموجات المذكورة أحدث عهدا من العبرانيين في المنطقة .

أصل هؤلاء من "شعوب البحر Sea-Peoples" المشهورين في التاريخ القديم والذين أتوا من العالم الأيحيى بعمامة وانتشروا فجأة وبصورة درامية على سواحل اللغات أو مشرق البحر المتوسط نتيجة اضطرابات في موطنهم لعلها نجمت بدورها عن تدفق الإغريق . فقد للفلسطينيين - الذين يرجح البعض كريت أصلا لهم - أن يستقروا على ساحل أرض كنعان في 1200 ق.م ، أي أيام حروب طرواده ، حيث أعطوها اسمهم منذئذ .

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بأرض كنعان أن يحاربوا الكنعانيين، ولكنهم لم يسيطروا إلا على التلال والأراضي الفقيرة الداخلية ، وظلت السهول الغنية في أيدي الكنعانيين الأصليين . وأغلب تاريخ اليهود في تلك المرحلة تاريخ دموى لا أخلاقى يدور حول الحرب والغزو ، إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالبا، وعلى يد الفلسطينيين أقوى أعدائهم بصفة خاصة . إذا كان منتصف القرن ١٧ ق . م ، أي بعد ١٥٠ سنة فقط من هجرة إبراهيم، هاجر يعقوب وأولاده إلى مصر بسبب القحط المشهور . وفيها استقروا بأرض جاشان (وادي الطميلات والشرقية) نحووا من ٣٥٠ سنة إلى أن خرج بهم منها سيدنا موسى (من الجيل السابع بعد إبراهيم) حوالي ١٣٠٠ ق.م وذلك هربا من اضطهاد فرعون (رمسيس الثانى) الذى استعبدهم "ومرر حياتهم فى الطوب والملاط" انتقاما منهم لتعاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر .

وفى التوراة أن قوة هذا "الخروج" كانت 600 ألف نسمة . وكانت العودة إلى أرض كنعان الهدف ، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين "العمالقة" أدى بهم إلى المعصية فعقاب التيه فى سيناء ٤٠ سنة . ويرى البعض أن الحكمة من التيه، الذى امتد بذلك إلى مدى جيل كامل تاريخيا فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا، هو إخضاع اليهود لعملية صارمة من "الإنتخاب الطبيعى" تصفى وتستبعد منهم العناصر

الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة ، وبذلك تدل من جيل هش منسحق إلى جيل مجدد
فوار يصلح للرسالة . وهكذا كان ، إلى أن قادهم يشوع إلى نهر الأردن حيث انتزعوا بعضا من أرض
كنعان في الداخل ، ولكن دون العاصمة ييوس (القدس) وساحل الفلسطينيين .
وفي فجر الألف الأولى قبل الميلاد بالضبط (بالتحديد عام 1000 ق م) وحد داود الأسباط أو قبائل
إسرائيل الاثنتى عشرة ، وهزم اليبوسيين والفلسطينيين وأسس ووسع مملكة إسرائيل حتى امتدت
"أرض إسرائيل من دان في الشمال إلى بير سبع في الجنوب واتخذت من ييوس عاصمة لها بعد أن
تحول اسمها إلى أورشلليم Ierouschoulaim أي مدينة السلام غير أن الدولة التي لم تصل قط أو لم
تصل إلا بالكاد إلى الساحل لم تلبث أن انشطرت بعد خليفته سليمان صاحب الهيكل إلى مملكتين :
مملكة يهوذا جنوبا في هضبة يهودية ، وتضم قبيلتي يهوذا وبنيامين ، ومملكة إسرائيل شمالا في
السامرة ، وتضم القبائل العشر الباقية . ومن المهم والطريف ان نلاحظ أن حدود هاتين الدولتين تتفق
إلى حد أو آخر لا مع رقعة إسرائيل المزعومة حاليا وإنما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الأردن ،
والهم أن الدولتين ، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربتين ، وقعتا في سياسة المضاربة بين مصر والعراق
أو الخضوع لهما ، فتعرضت المملكة الجنوبية لطرقا مصر مرتين الأولى على يد شيشنق والثانية على
يد نخاو ، إلى أن جاء دور المملكة الشمالية حين قضى عليها نهائيا سرجون الأشوري في القرن ٨ ق.م
(عام ٧٢١) ثم قضى نبوختنصر البابلي على الجنوبية في القرن 6 ق ٠ م . حيث دمر أورشلليم والهيكل
(٥٨٦ ق.م) وبذلك زالت إلى الابد دولة اليهود في فلسطين بعد حياة طولها أربعة قرون فقط يغلب
عليها الطابع الدموي العنيف ، بينما أن كل إقامة اليهود المتصلة في فلسطين لم تزد على ستة قرون
١٢٠٠ ق ٠ م حتى ٥٨٦ ق.م.

الشتات

الشتات البابلي

وإذا كانت الفترات السابقة معا هي المرحلة التكوينية - سفر التكوين - فإن من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات diaspora الذي يمكن أن نميز فيه ثلاث دورات أو أربعا فقد بدأ سرجون بنقل كثير من إسرائيلي السامرة من أبناء القبائل العشر إلى بابل وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الأخرى. ولكنه نبىختنصر بالذات الذي نقل أغلبية اليهود - آخرون يقولون ربع سكان يهودية أسرى إلى بابل ، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة ارباع المليون . ذلك كان "الأسر البابلي" الشهير الذي يمكن أن يعد الشتات الأول . وإذا كان الفرس ، بعد أن هزموا بابل (على يد كسرى ٥3٨ ق . م) واحتلوها وممتلكاتها في فلسطين ، قد سمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم .

بعد نصف قرن من الأسر البابلي، فإن قلة ضئيلة هي التي عادت ، وتقدر بنحو ٥٠ ألفا ، وحتى هذه لم تجد ترحيبا لأن أرض أجدادهم كان يحتلها الآن أسرى سرجون الذين وطنوا بها، ولذلك أسكنوا في منطقة يهودية الجنوبية حيث لم يترتب لعودتهم حتى اليهود المقيمون أنفسهم . أما الأغلبية المطلقة منهم فقد بقيت في العراق حيث كونت مستعمرات مهمة نمت حتى بلغت في عهد المسيح مليوناً بل وأكثر من المليون في القرون التالية إبان العصور العربية الإسلامية .

وقد امتد انتشار اليهود في العراق . شمالاً إلى كردستان . غير أن يهود العراق - مع كل سكانه - تعرضوا للابادة مع الطوفان المغولي حيث هوى عددهم إلى بضعة آلاف فقط . على أن يهود العراق كانوا نواة الشتات شرقاً . فمنهم انشطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة في عهد كسرى ، ولكن هجرتهم الكبرى كانت في القرن الثاني عشر لميلادي . وبالمثل كان يهود هيرات في أفغانستان ويهود بخارى وسمرقند في التركستان شظية من نواة فارس .

كذلك يقال أن يهود القوقاز - الذين يردون مستعمراتهم المبعثرة في تضاعيف جبالها هناك الى العصر الأشوري ، ولو أن أول ذكر لها تاريخياً يرجع إلى القرن الخامس الميلادي - يقال إنهم أتوا من فارس ونواتها القديمة ، ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع انتشار اليهود حتى نهاياته ومستعمراته القصوى في الشرق الأقصى بالهند والصين . ولعل من الجائز لنا أن نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ولو أننا لا نعرف على وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التي سلوكها إليها ، ومن ثم لا ندري إذا كان امتدادهم إليها يرتبط بالشتات البابلي أو بما تلاه من شتات . ففي الجاهلية الأخيرة كان اليهود غير قليلين في مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن .

ففى الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلهم ، بل كانت المدينة تحمل اسما يهوديا هو يثرب. غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة كانوا فى معظمهم عربا محليين متحولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين . أما فى اليمن بالذات فقد تحولت اعداد كبيرة من سكان العصر السبئى إلى اليهودية ، بل " كان أحد ملوك سبأ فى القرن السادس الميلادى يهوديا هو ذو النواس. كذلك فقد كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الامبراطورية الحبشية يهودا أصلا ثم تحولوا مبكرا إلى القبطية غير أن ظهور الإسلام صفى اليهودية تماما فى الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن حيث ظل اليهود إلى وقتنا هذا .

هذا ، وإذا كان شتات الأسر البابلى قد اتجه أساسا نحو الشرق، فمن المحتمل أن بعض الهجرة اتجهت غربا إلى شمال أفريقيا (المغرب) حيث يدعى اليهود ممن يسكنون الجبال اليوم ويتكلمون البربرية أن أجدادهم تركوا فلسطين إليها قبل الأسر البابلى نفسه، وحيث يسمون أنفسهم البلشثيم Plishtim والكلمة تحريف واضح لفلسطين . بل هناك المحتمل أن اليهود دخلوا شمال أفريقيا مع الفينيقيين، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة - بالتحول - بدرجة ما فى حين ما بين عدة قبائل بربرية حتى ما قبل قدوم الإسلام .

الشتات الهليني

أما الشتاء الثاني من شتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهلينية التي بعد قرنين من السيادة الفارسية ، تبدأ بفتوح الاسكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين . والاتجاه العام فى هذا الشتات هو نحو الغرب هذه المرة .

فإذا كان بعض اليهود فى فلسطين قد قاوموا الصبغة الهلينية بعنف وقاموا فى القرن الثانى قبل الميلاد بالثورة المكابية المتعصبة التي انشأت دولة يهودية ضد هيلينية ، فإن الكثيرين منهم انتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى فى كل العالم الهلينى والبيزنطى .

ففى مصر قدر أن ثلث سكان الاسكندرية البطلمية كان من اليهود ، كما يقال أنهم قاموا فيها بثورة قتلوا فيها ٢٢٠ ألفا من السكان الأصليين (؟) . وعدا مصر ، فقد وجد اليهود فى سوريا وآسيا الصغرى من قبل بدرجة أو بأخرى . وعدا هذا وذلك ، كان ثمة مركزان رئيسيان لتركز اليهود : البلقان ، وسواحل البحر الأسود الشمالية ، وكل يسبق العصر المسيحى بوقت طويل . وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم إلى جنوب روسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطية . أما مركز ساحل البحر الأسود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الاغريق بعد الاسكندر . وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والتتار التي اجتاحت جنوب روسيا .

غير أن للتتار هنا دورا مهما فى التاريخ اليهودى . فقد قامت منهم دولة فى القرن السابع الميلادى هي دولة الخزر التتارية التي تحولت بالجملة تماما فى رواية أو تحول حكامها وطبقاتها العليا فى رواية أخرى ، إلى اليهودية فى القرن الثامن أي أيام شارلمان ، بينما - بالمقابل - تحول اليهود المهاجرون ، إلى لغة الخزر التركية المسماة بالجاجتاي Jagatai وبهذا أصبح فى المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متحولون من السكان المحليين .

وقد كان للخزر مركزان ، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) عند مصب الفولجا ، والثانى فى القرم . وقد الغى المركز القزوينى فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن المركز القرمى ظل حتى القرن الحادى عشر إلى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التي تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة . وعندها انتشر كثير من الخزر من يهود ومتهودين فى أجزاء كثيرة من جنوب روسيا ، بالإضافة إلى ما عسى أن يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين حيث يمكن أن نتتبع ظهورهم - على الطريق فى روثينيا فى القرنين 10- ١١ ، وفى بولنده فى القرنين ١٢ - ١٤ . وفى القرن الثانى عشر (عام ١١١٠ بالتحديد) منعت روسيا نهائيا دخول أي يهود جدد بها وحددت

للموجود منهم مناطق معينة لا يقيمون خارجها، وهى التى ستؤلف النطاق الذى سيعرف «تاريخيا
بحظيرة اليهود»

الشتات الرومانى والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والأخير فى تاريخ اليهود القديم . انه الشتات الرومانى الذى أخذهم بعيدا إلى العالم الرومانى أي إلى الغرب الأقصى بالنسبة إلى الموطن الأصلى فلسطين ، وذلك فى حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة. وقد بدأ هذا الشتات فى الواقع مع الثورة المكابية، لكنه اكتمل مع الفتح الرومانى لفلسطين الذى يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحى .

فقد تواترت ثورات اليهود - الذين لم يعودوا يزدون على اقلية من سكان فلسطين - على الحكم الرومانى الذى رد بتخريب اورشليم والهيكل وبيادة اليهود فى مذبحة سنة ٧٠ ميلادية الفاصلة (تيتوس) التى صفت أغلبهم محليا وفر منها اقلهم إلى مصر وسوريا. غير أن بقايا اليهود عادوا إلى الثورة فى ١٣٥ ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت الى الأبد على مصير اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية . فعدا تدمير اورشليم والهيكل مرة أخرى، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة .

فن الأولى يقول جوزيفوس أن 1.350.000 قتلوا فى المعارك التى يعدها كما يقال ان 900.000 آخرين أسروا أو بيعوا كرقيق كما مات مئات من الآلاف غيرهم من المجاعات والأوبئة والمذابح. ويعلق هنتجتون - وهو جغرافى يهودى لا يخفى تعصبه - بأن هذه أرقام مبالغ فيها بلا شك، ويمكننا نحن أن ننبذها ونعدها خرافية تماما لأن الأدلة التاريخية وإشارات التوراة نفسها كما رأينا تضع كل تعداد اليهود فى حدود تقصر دون ذلك كثيرا جدا ولا تتجاوز ثلاثة ارباع المليون كحد أعلى . ومن الناحية الأخرى فإن البعض يقدر أن عدد من أبيد من اليهود فى هذه الثورة لا يقل عن ٦٠٠ ألف . فاذا صح هذا الرقم، ولعله أدنى إلى العقل ، فذاك انقراض جنسى حقيقى لم يكد يترك منهم ش وحى هذا الذى تبقى تكفلت الهجرة القهرية بتصفيته. فقد حرم الرومان على اليهود دخول القدس نهائيا، وطردوهم من فلسطين إلى كل أجزاء الامبراطورية ، وكان هذا هو التاريخ الذى انتهت فيه والى الأبد علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا. أنه الخروج الأخير. كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود فى قبرص . وحتى ندرك مدى ضائلة ماتبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات ، يكفى أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو. ٤ ألفا فقط ! وهو رقم لابد أن نتذكره دائما لما سيكون له من دلالات جنسية وتاريخية وسياسية عميقة المغزى أما ماتبقى بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصا فيما بعد بتحول بعض أفرادها إلى المسيحية. ولعل أهم تلك البقايا السامريون الذين تحولوا إلى قوقعة قزمية مغلقة فى نابلس (Schechem القديمة) حتى انها لاتزيد اليوم على مائة

أو مانتين ! وفى بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود فى فلسطين كلها ليزيد على ١٠ آلاف نسمة .. والملاحظ أن تحولا جذريا طرأ على اليهود بعد هذه الإبادة الشاملة والتشريد. فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى كله الغزو والعدوان. وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف. أما بعد مجازر الأشوريين والبابليين ثم الرومان فقد تحول اليهودى فجأة إلى شخصية مستضعفة خائفة تحقق اغراضها بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة .

يرجع هنتجتون هذا التحول فى الشخصية الجماعية إلى عملية الانتخابات التي فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة ولم يبق إلا عناصر الجبن والمسكنة والخبث... الخ . ومنها ومن حينها أخذ اليهود طابعهم الذى عرفوا به فى كل العالم حتى اليوم . على ان يهود الشتات الرومانى لم يأتوا من طريدى فلسطين وحدها وإنما كذلك من كل مستعمراتهم السابقة القائمة فى العالم الهلنستى. فتبعوا الرومان إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا حتي الراين ، وكان طريق الرون - الراين -

فرانكفورت، وهو طريق التجارة وشرائها التقليدى، خطا محوريا فى دخولهم العالم الرومانى . ومنذ القرن الثالث الميلادى على الأقل كانوا قد وصلوا إلى الراين ، حيث تحولت فرانكونيا بالذات إلى قاعدة رئيسية ونواة لهم وكادت عاصمتها فرانكفورت أن تكون عاصمة يهود الشتات الجديد. ومنذ ذلك الوقت نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة فرانكفورت واليهود ستظل عبر القرون حتى يومنا هذا .

ويقدر البعض عدد اليهود فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى بما يتراوح بين 4، 7 ملايين أي نحو ٧% من مجموع السكان. وهذا الرقم أيا كان نصيبه من الدقة أو الصحة ينبغى أن نذكره جيدا وأن نقرنه فى الذاكرة بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الأخير والبالغ ٤٠ ألفا، لأن معناه أن اليهود فى الشتات ضاعفوا عددهم بين .

اقل من ٥٠٠ سنة وهو معدل فلكى لا يمكن إلا أن يلقي ضوءا حاسما على طريقة نموهم ، إن تزايداً طبيعياً أو تزايداً بالتبشير والتحول .

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث أن أتت بحروبها الصليبية التي أشعلت نار الاضطهاد ضد اليهود فى جميع أنحاء أوروبا مثلما اثارها ضد العرب خارجها وعلى أطرافها ومشارفها. هنالك بدأت عمليات الطرد بالجملة والإبادة التي ستؤدى فى النهاية إلى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوروبا. ففى أواخر القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤) اختفى يهود فرنسا تماما بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة. أما يهود ايطاليا فظلوا متوقعين بها حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع وحيث تلقوا - فضلا عن ذلك هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد أما يهود ألمانيا وأسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود فى العصور الحديثة. فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الإبادة والطرد ، ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوروبا من ناحية وجنوب أوروبا وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى ، أعنى ثنائية الأشكناز والسافردى على الترتب والاشكنازيم والسفارديم كلمتان قديمتان فى التوراة استعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى

لتميز بين يهود ألمانيا ويهود أسبانيا على الترتيب ، اعتقادا منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة يهودا ، ويهود أسبانيا من نسل قبيلة بينامين. والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم "ارستقراطية" اليهود على: الأساس الدينى، غير أنه قدر للأشكناز أن يؤلفوا الأغلبية الساحقة عدديا 80 : 90% فيما يقدر - والطبقة المسيطرة المتفوقة حضاريا الى حد يهتقرون معه السفارديم احتقارا لايحفلون بإخفائه .

فإذا عدنا إلى الشتات وبدانا بالأشكناز، وجدنا أن أول اضطهاد يتعرض له يهود الراين بألمانيا يبدأ مع الحملة الصليبية فى القرن الحادى عشر (١٠٩٦) ولو أنهم كانوا قد بدأوا يتسربون إلى العالم السلافى فى بوهيميا وبولنده قبل ذلك بقرنين أو أكثر. هنالك بدأت الهجرة الهاربة التي تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتي اتجهت أساسا نحو الشرق. ونحو الشرق اتجهت لأن ملوك بولنده، الذين كانوا يعملون على زيادة سكان مدنها، رحبوا بكل هجرة، فاعتنم اليهود الفرصة ، وكان خروجها بالجملة وصل إلى حد أثار فى النهاية مخاوف بولنده. غير أن انتقال جسم الأشكناز كان قد تم نهائيا، وتحولت نواة فرانكونيا القديمة إلى مجرد بقايا أو إلى شبح يذكر بالتوزيعات التاريخية الأولى ، وفى نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن المانية مفتوحة لليهود هى فرانكفورت وفرمس وفيرت أما فى بولنده وجنوب روسيا فقد التقى اليهود الألمان مع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر الذين كانوا بدورهم قد بدأوا يطاردون نحو الشمال والغرب على يد الاضطهادات السياسية الشهيرة المعروفة فى روسيا بالبوجروم Pogroms، والتي اتسع نطاقها ليشمل يهود بولنده بعد تقسيم هذه الدولة وانتقال الشطر الأكبر منها إلى روسيا . وتتمثل آثار هذا اللقاء الآن من بين ماتتمثل فى يهود القرم الذين ينقسمون إلى يهود قرائين ، وإلى يهود القرمشاك Krimshaks الربانين، كما تتمثل فى يهود ليتوانيا القرائين .

والمهم أن ذلك اللقاء تحول ولم يكن له بد من أن يتحول - ليس فقط إلى شملية تراكم عدوى وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها فى العالم حتى اليوم ، وإنها تحولت كذلك إلى عملية خلط ومزج وصهر سيسود فيها يهود الغرب الألمان عدديا وحضاريا على السواء. ومن أوضح وأبسط مظاهر هذه السيادة اللغة الجديدة التي نشأت عن التفاعل وهى اليديشية Yiddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التي حملها معهم يهود الغرب- وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودى بالألمانية والتي ستصبح اهم لسان بين أسنة اليهود التي لا حصر لها . أما عن السفارديم فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود - جنبا إلى جنب مع العرب .. من أسبانيا فى الاسترداد Reconquista» عام ١٤٩٢ بعد عصر من الاضطهاد والإبادة على يد محاكم التفتيش. والمقدر ان عدد يهود أسبانيا العربية وصل فى حين ما إلى حد المليون نسمة . انتشر هؤلاء اليهود فى فترات مختلفة إلى هولندا وانجلترا، وإلى ايطاليا وفرنسا، ولكن خاصة إلى شمال أفريقيا ابتداء من مراكش حتى تونس ، وبالأخص إلى الامبراطورية العثمانية. وفى الامبراطورية العثمانية الحديثة التوسع وجدت

الأغلبية الساحقة من السفارديم موطنها الجديد ، ابتداء من البلقان والدانوب حتى الأناضول والشرق الأوسط حيث كانت سالونيك والقسطنطينية من أهم بؤرات تجمعهم ، وحيث التقوا باليهود القدامى من بيزنطيين وسابقين للعصر البابلي سواء غرباء مهاجرين أو محليين متحولين وفي كثير من هذه المهاجر الجديدة أصبح السفارديم كالأشكنازيم في مهجرهم الجديد - هم الساندين عددا بين الجاليات اليهودية ، بل كادوا ان يكونوا العنصر الوحيد في يهود مدن البلقان .

وفي كل هذا المجال الجغرافي اطلق عليهم اسم الاسبانيولي Spagnuoli ,Spaniol كما حملوا اليه كالأشكناز لغتهم الاسبانية المحرفة المعروفة باسم اللادينو Ladino ، وظلوا حتى اليوم يلبسون لباسا خاصا ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة إقامتهم الاسبانية .

الشتات الحديث

تلك قصة "اليهودى التانه أو المتجول" من أول شتات قبل الميلاد إلى آخر شتات فى مطالع العصور الحديثة. بيد أن هناك حلقة رابعة تتم السلسلة ، وتتركز فى القرن أو القرنين الأخيرين ، ولا بأس أن نشير هنا بايجاز إلى خطوطها العريضة ولعلها خطان رئيسيان أو ثلاثة . وفيها جميعا سيكون الدور الأكبر بطبيعة الحال للاشكنازيم بحكم سيادتهم العددية ، وإذا كان السفارديم قد ساهموا فى الشتات الحديث فبقدر محدود . والإنتشار الأول والأهم فى الفترة المعاصرة هو بلا شك إنتشار العالم الجديد بمعناه الواسع والولايات المتحدة بصفة خاصة، ويمكن ان نميز فى هجرة اليهود إلى أمريكا الشمالية مراحل ثلاث، لكل منها قطبها الجغرافى، وثلاثتها ترسم معا حركة واضحة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى. فالأولى تتفق مع مايعرف فى التاريخ الأمريكى "بالعصر الاستعمارى" فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. ومصدرها الرئيسى أسبانيا والبرتغال، وقوامها السفارديم أساسا ، وطلانها الأولى مبكرة حقا تتعاصر مع الآباء المهاجرين والبيورتان، ولكنها فى الجملة قوة محدودة. عددا أما المرحلة الثانية ففى اواسط القرن التاسع عشر تقع، وترتبط أساسا بأواسط أوروبا: ألمانيا بالدرجة الأولى ثم فرنسا. ذلك عصر الثورات والاضطرابات السياسية التاريخية فى القارة ، فكان خروج يهودى نشيط حمل إلى الولايات المتحدة نحو ربع المليون: فالمقدر أن ثورتى ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ قذفتا إليها بنحو ٢٣٠ ألف يهودى .

أما المرحلة الثالثة ففترة محدودة حول دورة القرن من ١٨٨٥ إلى ١٩١٤، وكان قطبها المركزى فى الارسلال الروسية القيصرية يحف به هالة تشمل النمسا - المجر ورومانيا . وقد دخل الولايات المتحدة من اليهود بين ١٨٨١ ، 1910 زهاء 1.562.000 منهم 1.119.000 من الروسيا ، ٢٨١ الفا من النمسا - المجر ، ٦٧ الفا من رومانيا. وفيما بين ١٩٠٠ ، ١٩١٣ فقط هاجر من الروسيا ٩٦٤ الف يهودى إلى الولايات المتحدة ، ٦٠ الفا إلى كندا .

ذلك إذن تيار كثيف عرم من وسط وشرق أوروبا انفجر مع استمرار الاضطهاد والغربة من جهة ومع فتح باب الهجرة إلى الولايات المتحدة من جهة أخرى، انفجر ليستقر فى أمريكا الشمالية منذ العشرينات من القرن الحالى وليصبح فيما بعد أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض على وجه الاطلاق. كذلك انطلقت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية بأغلب وحداتها السياسية خاصة البرازيل والأرجنتين . أما فى العالم القديم فقد كانت كثافة وقوة الهجرة أقل بكثير، وكانت أستراليا وجنوب أفريقيا هما القطبين الأساسيين فيها ، غير أننا لاينبغى أن ننسى المجال السوفيتى حيث هجر بعض من يهود الروسيا إلى

الشرق الأقصى السوفيتي وأقيمت لهم جمهورية خاصة هي جمهورية بوروبيدجان Birobidjan اليهودية في حوض الآمور. ومحصلة كل هذه الهجرات أن الإنتشار الحديث توزع في كل الاتجاهات ، أي على إطار دائري حول النواة التاريخية القديمة، ولكن مركز ثقله المطلق كان دائما صوب الغرب الأقصى استمرارا لاتجاه المحور الأسى في كل حركة الشتات اليهودي عبر التاريخ .

بعد هذا تمثل الفترة النازية في ألمانيا الهتلرية دورة شتات جديدة . فقد أدى الاضطهاد النازي لليهود ، الذي وصل إلى قمته في عمليات الإبادة الجماعية التي يقدر البعض جملة حصادها إن خطأ أو صوابا وإن حقا أو مبالغة بنحو خمسة ملايين يهودي ، أدى هذا إلى حركة خروج أو بالأحرى هروب من الرايخ وأوروبا الوسطى بعامة. وإذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوروبا في فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية، فإن الجزء الأكبر منها اتجه إلى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة. فكانت عملية تفريغ ليهود وسط أوروبا وتكثيف ليهود الولايات المتحدة، كما كانت بداية عملية أو جريمة زرع إسرائيل .

وهذه الجريمة الأخيرة نفسها هي دورة جديدة في - ماذا نقول - شتات اليهود ، غير أنها اختزلت وكثفت كل تاريخ اليهود في الاضطهاد وعكسته على عرب فلسطين الشرعيين . إنها الدورة الصهيونية التي قامت بعملية "اسقاط" على العرب لكل تجربة يهود الشتات من إبادة وطرد وخروج ابتداء من الأسر البابلي حتى ضد السامية النازية . ومع اغتصاب فلسطين ، الذي تسميه الصهيونية بالكذب والسخرية المريرة حرب الاستقلال " والعودة إلى أرض الميعاد "

تشععت تيارات وموجات الهجرة نحو بؤرة واحدة وجديدة . من بين هذه التيارات كان التيار الأوروبي هو السائد في بداية صنع إسرائيل ، ثم تحول . إلى آسيا، وبعدها إلى أفريقيا على الترتيب . ولما كان هذان المصدران الأخيران يقع أغلبهما في العالم العربي ، بينما طرد عرب فلسطين إلى البلاد العربية المجاورة، فقد وصل السفه الإسرائيلي الصهيوني إلى حد الزعم الفاجر بأن العملية كلها ليست إلا عملية "تبادل سكان" ! غير أن المستقبل القريب جدير بأن يثبت أن إسرائيل لن تكون إلا مجرد مرحلة في رحلة الشتات التاريخية، مجرد جملة اعتراضية في تاريخ فلسطين، وقريب هو لاشك "الخروج" الجديد

طوائف ثلاث

ونستطيع الآن بعد أن انتهينا من ديناميكية اليهود عبر التاريخ أن ننظر نظرة عامة إلى صورتهم الاستاتيكية الحالية كما تتمثل في التصنيف الأولى لفئاتهم الطائفية. ولقد رأينا التفرقة بين الأشكناز والسفاردي، ولكن لابد ان نضيف اليهود الشرقيين **Jews Oriental** هؤلاء لايقعون "داخل أي من المجموعتين الأوليين، وإنما يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القديمة من فلسطين رأسا أو من مراكز يهودية ثانوية. وهم اذا كانوا - نظريا - الأقرب إلى الأصول الفلسطينية، فإنهم الأقل عددا والأدنى مرتبة في الهيراركية اليهودية ، فكل من الأشكناز والسفارديم ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء بلا مواربة .

أما توزيعا، فإن الأشكناز يشملون اليوم يهود غرب ووسط وشرق أوروبا، بالإضافة إلى خلائهم الجديدة التي انشطرت في العالم الجديد بقارتيه ، ثم جنوب أفريقيا وأستراليا، ويشمل السفاردي يهود البلقان والشرق الأدنى ، كما يشمل مستعمرات وجاليات مبعثرة على شواطئ البحر المتوسط الشمالية والجنوبية، بالإضافة أخيرا الى امتداداتهم الحديثة ، والمحدودة في العالم الجديد شماله والجنوب. أما اليهود الشرقيون فإليهم تنتمي مستعمرات في شمال أفريقيا وفلسطين، ثم مستعمراتهم في العراق واليمن ، ثم القوقاز وإيران والتركستان الروسية ، وكذلك الهند والصين .

وبعض هذه التوزيعات يستحق شيئا من التفصيل . ففي القوقاز تنتشر شطايا اليهود الشرقيين تحت أسماء مختلفة : فثمة يهود الجبال في داغستان من بقايا الخزر القدامى والذين يعيشون في ثنايا الشعب اللزجي **Lesghians** ويتكلمون لهجة فارسية، وثمة يهود جورجيا في تفليس خاصة، ثم يتم الصورة الفسيفسائية يهود الشماخة **Shemakha** في أذربيجان. أما في فلسطين، فإذا كان اليهود المحليون قبل الاغتصاب هم من الشرقيين ، فقد جمعت الصهيونية بالهجرة بين المجموعات الرئيسية الثلاث بنسبة النصف من الأشكناز والنصف من السفارديم والشرقيين .

توزيع اليهود في العالم

اكتملت لنا الآن فيما نأمل صورة هيكل التاريخ اليهودي على نحو ما، وأن لنا أن نضع التوزيع الراهن لليهودية العالمية **Judenthum** تحت المجهر وذلك قبل أن نتقدم لندرس انثروبولوجية اليهود جنسيا،

فإن لتوزيع اليهود فى ذاته - واليهود بالذات قيمة ودلالة انثروبولوجية حاسمة كما سنرى. ولعل من الواضح الآن أن الذبذبة العنيفة

مابين نمو وتناقص هى ملمح أساسى جدا فى كيان اليهودية العالمية، شأنها تماما شأن السيولة الجغرافية النادرة المثال فى توزيعها المكانى .

إنها إذن ذبذبة مزدوجة فى الزمان والمكان ، بل لعلهما هنا جانبان لشيء واحد. إلا أن الذبذبة العنيفة فى الزمان تجعل نمو اليهود فى نهاية المطاف وعلى المدى الطويل أقرب إلى الجمود والتوقف النسبى. فكلما نموا بالزيادة الطبيعية سرعان ماتحصدهم الاضطهادات فيعودون إلى نقطة البدء من جديد. أما الذبذبة فى المكان فتنتهى إلى تغيير جذرى ومثير فى أوطانهم الاقليمية بصورة انقلابية تماما. ونحن نستطيع هنا أن نعرض "لقطتين" لتوزيع اليهود بين تاريخين متباعدين بما فيه الكفاية لندرك هذه الذبذبات الانقلابية. الأولى فى العقد أو العقدين الأخيرين من القرن الماضى ، والثانية فى يومنا هذا، فحولنا ١٨٨٠ وبعدها قدر عدد يهود العالم بنحو ٦ مليون نسمة ، منهم ٥ مليون فى أوروبا وحدها بنسبة ٨٤ ٪ ، ٢ ٪ ألفا فى أفريقيا بنسبة ٦ ٪ و 250 ألفا فى آسيا بنسبة ٤ ٪ والبقية فى أمريكا وأستراليا.

أما حوالى نهاية القرن أو دورته فقد قدر عدد يهود العالم بنحو ٨ إلى ٩ ملايين. من هؤلاء كان ٦ - ٧ ملايين يتوزعون فى أوروبا وحدها أى بنسبة ٨٠ ٪ وهناك فى أوروبا، حيث التوزيع أو الكثافة أبعد شيء عن التجانس، كان مركز الثقل يتحدد فى دائرتين يفصل بينهما برزخ أو انخفاض عميق : دائرة فى الشرق وأخرى فى الغرب .

فالأولى دائرة الأساس، وهى بالفعل دائرية شكلا ، تغطى جنوب غرب روسيا وجنوب دويلات البلطيق وكل بولندة (والأخيرتان كانتا تابعتين للروسيا سياسيا) ثم أقصى شرق ألمانيا حيث اشتد طفح يهود بولندة بدرجة خطيرة أثارت صيحة ضد السامية ، ثم أخيرا امبراطورية النمسا - المجر شمال الدانوب. وحدود الدائرة شرقا فى روسيا قاطعة حادة بحكم القانون الذى قصر اقامة اليهود على مناطق معينة ، وترسم قوسا من القوقاز إلى البلطيق .

أما فى مجموعها فتزن الدائرة أكثر من ٦ ملايين يهودى : إنها ببساطة قطب اليهودية فى العالم. وثقلها الطاغى هذا وحده يجعلنا نفترض لها أكثر من مصدر تاريخى، فليس من المعقول أن نفترض أنها استمدت كل جسمها من الدائرة الصغرى وحدها إلى الغرب ، بل لابد كذلك أن نفترض المصدر الشرقى عن طريق القوقاز ، إلى جانب التحول الدينى المحلى . من هذه الدائرة يحتل جنوب غرب روسيا القلب المطلق ، فكان فى روسيا نحو ٤ - ٥ ملايين أى نصف يهود العالم. ولكننا حين نقول روسيا فإنما نقصد معها الجزء الأكبر من بولندة الذى ضم إليها فى التقسيم السياسى "Polognerusse" والذى كان هو النواة النووية الحققة فى كل دائرة اليهود الشرقية. بل يذكر البعض أن يهود بولندة وحدها كانوا يؤلفون نهف يهود العالم. أما بقية التوزيع فكانت النمسا - المجر تلى بنحو مليونين ، ثم رومانيا

بحوالى: ٦٠ - ٧ ألف أما عن الدائرة الثانية فى الغرب فهى أصغر بكثير، تنتشر فى حوض الراين بعامرة وفرنكونيا والألزاس واللورين وهولندا بخاصة ، وتستقطب جميعا حول مدينة فرانكفورت . فكان بكل ألمانيا ٧٠ ألف، الجزء الأكبر منهم فى حدود هذه الدائرة، وكان بهولندا ١٠٠ ألف ، وبفرنسا ٨٠ ألفا. اما خارج هاتين الدائرتين فتقل أعداد وكثافات اليهود كثيرا أو كثيرا جدا : بريطانيا ١٠٠ ألف أغلبهم فى لندن ، إيطاليا ٥٠ ألفا ، أما اسكندناوة فكان اليهود ممنوعين حتى منتصف القرن تقريبا، وفى أسبانيا لم يكن ثمة يهودى على الإطلاق منذ "الاسترداد" أما خارج أوروبا فكان المقدر ان يهود الولايات المتحدة لايزيدون حينذاك رغم بداية تدفق الهجرة من روسيا - لايزيدون عن نصف المليون مبعثرين فى مدنها الكبرى، منهم ربع مليون فى نيويورك . وفى ١٩٠٥ قدر عدد يهود العالم بأكثر من ١١ مليونا، نصفهم فى روسيا ورومانيا، وثلثهم فى ألمانيا والنمسا، والسدس فى بقية العالم. ولكن أثر الهجرة إلى العالم الجديد كان قد بدأ، فإن أغلب هذا السدس الأخير أو نحو ١٣ % من مجموع اليهود كان يحتشد فى الولايات المتحدة وحدها .

ماذا تعنى هذه الأرقام وتلك التوزيعات ؟ مهما يكن من أمر ، وبغض النظر عن التطورات الطفيفة فى التوزيع بين تلك التواريخ المتقاربة ، فإن ملامح الصورة العامة واضحة، فأوروبا هى عمليا الوطن المطلق لليهودية العالمية، ومايوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا. وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن ان نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة اقطارا واحكاما من الشرق إلى الغرب : دائرة شرق أوروبا ومركزها بولندا الروسية ، ودائرة غرب أوروبا ومركزها الراين وفرنكفورت ، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك لننظر الآن إلى توزيع اليهود المعاصر لنرى الانقلاب المطلق، فقط لنذكر أولا ان الصورة فى أوروبا قبل النازية والحرب الثانية كانت تختلف كثيرا فى أساسياتها عن صورة نهاية القرن ، وفى نفس الوقت كانت تتشابه. تتشابه من حيث أنها تمثل تكتيفا تراكميا لتلك الصورة بحكم التزايد الطبيعى ، وتختلف فى أنها بدأت تعكس نتائج وأثار الهجرة إلى العالم الجديد بصورة حاسمة . إنها باختصار تمثل مرحلة الانتقال من نمط منتصف القرن التاسع عشر إلى نمط منتصف القرن العشرين . وفى عام ١٩٣٩ قدر يهود العالم ١٥ مليونا، (ولعل هذه أعلى قمة سجلتها ديموغرافية اليهود فى تاريخهم ، فبعدها جاءت اباداة النازية التى - وان رفضنا مبالغات وتهويل الدعايات الصهيونية - حصدت منهم لاشك عددا كبيرا) اما عن التوزيع، فالمقدر أنه كان بأوروبا ١٠ ملايين أى الثلثان، منهم ٣ ملايين فى الاتحاد السوفييتى ، ٣ ملايين فى دول شرق أوروبا الجديدة وهى دويلات البلطيق وبولندا، أما أمريكا فكان نصيبها ٥ر٤ من المليون ، وآسيا ثلاثة ارباع المليون .

أما عام - ١٩٦٦ - وبعد أن عاد اليهود إلى النمو الطبيعى منذ نهاية الحرب، فإن عددهم يقدر بنحو ٤ ر ١٣ من المليون. والرقم قبل أن ندخل إلى تحليل جزئياته - جدير بوقفة تأمل ، فإن له أكثر من مغزى . فأر ، اذا تذكرنا عدد اليهود فى القرن الخامس الميلادى (٤ - ٧ ملايين) فإن معناه ان اليهود فى ١٥٠٠

سنة لم يتضاعفوا إلا مرة واحدة أو اثنتين و ثلاث بينما كانوا قد ضاعفوا أنفسهم فى القرون الخمسة السابقة بمعدلات خيالية ! ولا تفسير لهذا إلا ميكانيكية النمو والتناقص بالتناوب، أو ميكانيكية شد الحبل المزمنة بين قوى النمو الطبيعى وقوى الاضطهاد والإبادة .

ثانيا، وفى الاطار الكوكبى، يبدو اليهود على الفور شيئا ضئيلا بالغاً حد القزمية فى ديموغرافية العالم: ١٣ر٤ من المليون من أكثر ٣٣٠٠ مليون، أو ٢ - ٤ فى الالف من سكان العالم، وتبدو اليهودية بسهولة قوقعة دينية حفريّة ضامرة والواقع ان اليهودية، وحدها من بين الأديان السماوية، هى التى تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية، فى انها ديانة "مقفلة أو مغلقة" اى تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبدا. وإذا كان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه إلى نوعين : ديانات "جغرافية" وديانات "عنصرية" يعنى على الترتيب ديانات محلية التوزيع قاصرة على وطن أو بيئة محدودة، أو مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه - فإن اليهود يمثلون شذوذا يكاد يصل إلى حد المتناقضة الفذة . فهم قد بداوا ديانة جغرافية وعنصرية معا ، وبصرامة قاطعة ذلك ، ولكن منذ الشتات انتشروا أيدى سبأ فى أرجاء العالم لتصبح اليهودية عالمية أو شبه عالمية بمجرد توزيعها، وإن كانت أبعد شىء عن العالمية بحجمها القزمى الضئيل. كذلك فقد تخطى اليهود كما سنرى - ودخلهم بالتحول والتزاوج دماء عناصر شتى لاحصر لها، فما عادوا عنصرا بعينه متجمدا على الديانة، ولا الديانة عادت مرادفة لعنصر جنسى واحد. ومع ذلك فاليهود واليهودية، بالسياسة والمذهبية ، تمثل عنصرية عاتية غاشمة تلخصها فى كلمة واحدة الصهيونية المعاصرة . والآن كيف يبدو نمط توزيع هذه الأقلية الدينية العالمية ؟ الجدول الآتى ، الذى يدور حول أواخر الخمسينات وكما أورده كتاب (اليهودية العالمية World Jewry لايعطى إلا ١٢ مليوناً كمجموع كلى، ولذا فهو يقدم صورة رقمية قد تختلف قليلا عن صورة اليوم، ولكنه يظل يعطى نسبا صحيحة بوجه عام

القارة	عدد اليهود	%
أوربا (بكل الاتحاد السوفيتي)	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٨
أمريكا الشمالية	٥,٤٣٣,٠٠٠	٤٥,١
أمريكا الجنوبية	٦٣٣,٠٠٠	٥,٣
آسيا	١,٨٥٥,٠٠٠	١٥,٤
أفريقيا	٥٨٥,٠٠٠	٤,٩
أستراليا ونيوزيلندا	٦١,٠٠٠	٠,٥

والحقيقة الكبرى التي يكاد يضح بها الجدول هي أن نصف يهود العالم جميعا يعيشون في العالم الجديد، السواد الأعظم منهم في أمريكا الشمالية التي تعنى عمليا الولايات المتحدة بالتحديد. هذا بينما لاتضم أوروبا، وهي التي كانت منذ نصف قرن حتى نهاية القرن الماضي تحتكر ٨٠ % من يهود العالم، لاتضم إلا مايزيد على الربع قليلا. انقلاب كامل ، وانتقال مطلق لمركز الثقل! وهو انتقال في نفس الاتجاه وعلى نفس المحور التاريخي لحركة ورحلة اليهودي التائه : إلى الغرب دائما .

أما آسيا وأفريقيا فلا تجمعان معا إلا خمس اليهودية ، وهذا أيضا شذوذ طارئ جديد لأن النسبة الكبرى منهم تتشكل من صهيونية إسرائيل الدخيلة الغاصبة، وبغيرها لاتزيد آسيا وأفريقيا على ٧ - ٨ % من يهود العالم، بل يهوى عدد يهود آسيا إلى ١٣٦ ألف فقط وتهوى نسبة آسيا إلى ٢٥ لتصبح أقل من أفريقيا وأقل القارات جميعا باستثناء أستراليا . أما داخل القارات ففي هذا الجدول انعكاس لأهم ملامحها بحسب أرقام "اليهودية العالمية" سابق الذكر، علما بأن النسب المئوية تشير إلى نسبة يهود كل دولة إلى سكان تلك الدولة .

الدولة	عدد اليهود	%
كندا	٢٣٣,٠٠٠	١,٤
الولايات المتحدة	٥,٢٠٠,٠٠٠	٣,١
الأرجنتين	٢٦٠,٠٠٠	١,٨
البرازيل	١٢٠,٠٠٠	٠,٢
أوروغواي	٥٠,٠٠٠	٢,٠٠
النمسا	١١,٨٠٠	٠,٢
بلجيكا	٣٥,٠٠٠	٠,٤
هولندا	٢٦,٠٠٠	٠,٢
تشيكوسلوفاكيا	٢٠,٠٠٠	٠,٢
بريطانيا	٤٥٠,٠٠٠	٠,٩
فرنسا	٣٥٠,٠٠٠	٠,٨
بولنده	٤٥,٠٠٠	٠,٢
ألمانيا	٣٠,٠٠٠	٠,٠
المجر	١١٠,٠٠٠	١,١
إيطاليا	٣٢,٠٠٠	٠,٣
رومانيا	٢٣٥,٠٠٠	١,٣
الاتحاد السوفيتي	٢,٠٠٠,٠٠٠	٠,٨
تركيا	٦٠,٠٠٠	٠,٢
المغرب	٢٠٠,٠٠٠	٢,١
الجزائر	١٣٠,٠٠٠	١,٤
تونس	٨٠,٠٠٠	٢,١
مصر	٤٠,٠٠٠	٠,٢
أثيوبيا	١٢,٠٠٠	٠,١

الدولة	عدد اليهود	%
جنوب أفريقيا	١١٠,٠٠٠	٠,٧
الهند	٢٥,٤٠٠	٠,٠
إيران	٨٠,٠٠٠	٠,٤
إسرائيل	١,٧١٩,٠٠٠	٨٩,٢
سوريا	٥,٠٠٠	٠,١
لبنان	٦,٠٠٠	٠,٤
اليمن	٣,٥٠٠	٠,١
عدن	٨٠٠	٠,١
أستراليا	٥٧,٠٠٠	٠,٦

والجدول حافل بالحقائق المثيرة الجديرة بكل ملاحظة وتدبر . فأولا ، كما انتقلت الصدارة من أوروبا الى أمريكا الشمالية، انتقلت من روسيا (الاتحاد السوفييتي) إلى الولايات المتحدة التي هي اليوم المعقل

الأكبر لليهودية حيث تضم وحدها ٤٤ % منها. وقد نما عدد اليهود فى الولايات المتحدة من 4.081.000 فى 1926 إلى 4.461.000 فى ١٩3٦ ، ثم ظل بعد ذلك يرد لسنوات طوال متتابعة على أنا بحسب تقدير الأجهزة اليهودية. وكما يعلق بيرجل فذاك مجرد تقدير تخمينى لاشك ، وأهم من ذلك أنه مبالغ فيه على وجه اليقين ككل أرقام الأقليات . وأيا مآكان، تظل كتلة الولايات المتحدة هى اضخم حشد يهودى فى العالم .

ثم يأتى الاتحاد السوفييتى كالثانى فى العالم بسدس مجموع اليهود أو حوالى ١٦ . وبهذا تكون الولايات المتحدة والاتحاد هما الدائرتين الكبيرتين الآن فى محيط اليهودية العالمية اللتين ورثتا دائرتى شرق أوروبا والراين فى القرن الماضى ، أو قل إن دائرة الراين الصغرى هاجرت وعبرت المحيط لتصبح هى مركز الثقل الطاغى .

ويلى الاتحاد إسرائيل الصهيونية فى فلسطينا المحتلة لتكون الثالثة فى العالم ، وهى لاتضم من يهود العالم الا ١٢ % .

وإذا كانت هذه هى أرقام أواخر الخمسينات فقد نشرت أخيرا أرقام حديثة عن تعداد اليهود فى الدول الثلاث السابقة يمكن على أساسها ان نرى تغيرا ملحوظا فى اوزانهم . فالكتاب السنوى اليهودى الأمريكى يقدر عدد يهود العالم فى أول 1966 بنحو ١3ر٤ من المليون نسمة ، منهم 5ملايين فى الولايات المتحدة أى بنسبة ٣٧ % ٠٠٠ ر ٤٨٦ ر ٢ فى الاتحاد السوفييتى بنسبة 18% ٠٠٠ ر ٢٢٩ ر ٢ فى إسرائيل بنسبة ١٦ % وبمقارنة هذه الأرقام والنسب بأرقام أواخر الخمسينات يرجح لدينا أن بعض التغيرات هى

فى الحقيقة مجرد تصحيحات لأرقام تقريبية سابقة. والمهم على اية حال ان نسبة الولايات المتحدة قد انخفضت قليلا، بينما ارتفعت نسبة الاتحاد السوفييتى، وارتفعت نسبة إسرائيل - لاشك بالهجرة - أكثر .

هذا إذن عن "الثلاثة الكبار" كما يقال - فى اليهودية العالمية . ولكن ثمة بعدها دول تتدرج من حوالى نصف المليون إلى ثلث المليون إلى ربع المليون ، هى على الترتيب بريطانيا نصف ثم الأرجنتين وفرنسا ثلث ثم كندا ورومانيا ربع . ثم تلى بعد هذا ٥ دول يزيد عدد اليهود فى كل منها على المائة ألف ، هى على الترتيب ، المغرب فالجزائر فالبرازيل فالمجر فجمهورية جنوب أفريقيا، مع ملاحظة ان الهجرة أخيرا من المغرب والجزائر قد هبطت بأعداد اليهود فيهما كثيرا جدا حتى خرجت بهما من هذه المجموعة . من هذا التصنيف الحجمى لايمكن إلا أن نصل الى نتيجة بالغة الأهمية إن لم تكن ثورية حقا . فإذا نحن أضفنا مجموع الثلاثة الكبار لاتضح لنا حقيقة بالغة الخطورة وهى أن ٨٩ مليون يهودى من ١٣ مليونا أو نحو ٦٩ % تحتشد جميعا فى ثلاث من دول العالم وذلك بحسب أرقام الخمسينات أو 9.785.000 من 13.400.000 أى بنسبة ٧١ % بحسب أرقام ١٩٦٦ . كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول الثلاث عشرة فئة + ١٠ ألف لوجدناها تحتكر وحدها 0٠٠ ر ٢٠٧ ر ١١ يهودى من المجموع

العالمى البالغ حينذاك

12.035.000 أو زهاء 93% فما معنى هذا ؟ قد يكون اليهودى عالمى التوزيع ، بمعنى أنه لاتكاد تخلو العالم منه ، وقد يكون توزيع اليهودية على طرف النقيض من توزيع الإسلام الجغرافى الذى ينفرد من بين الأديان بمحيط مطلق يكاد يكون متصلا بلا انقطاع ، ولكن ليس صحيحا أن "تحت كل حجر فى العالم يهوديا" إنما الاصح ان نقول أن توزيع اليهود العالمى توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحرل أحيانا إلى تراب رمزي بحت بينما أن 69% أو 71% من يهود العالم يتكدسون كقطة من الأحجار الضخمة " فى ٣ دول ، ٩٣% فى ١٢ دولة . وبينما تتراوح نسب اليهود إلى عدد السكان الكلى فى دول الجاليات الكبرى (ماعدا فلسطين المحتلة) بين ٣% كما فى الولايات المتحدة وبين ١% تتأرجح فى بقية دول العالم حوالى ار. ، ٢٠ ، ٤٠ فى الأعم الأغلب، وكثيرا ماتكون أقرب إلى الصفر .

أما اذا عدنا إلى التوزيعات الاقليمية، فسجد الصورة أوضح مايكون، ولكن أيضا أشد مايكون ثورية فى أوروبا، فثمة دائرتان أو بالأحرى الآن نواة ضخمة ونوية ثانوية. النواة فى شرق أوروبا (٣ ملايين) الاتحاد السوفييتى بمليونين وربع المليون ثم رومانيا بربع مليون، والمجر بنصف ذلك . ومن الواضح أن هذه النواة تقلص ضامر لنواة القرن الماضى الثقيلة بعد أن خفت فى القلب وقلمت اطرافها فى بولنده وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا والنمسا بفعل الهجرة والحرب وعمليات التصفية النازية. أما النوية (اقل من المليون) ففى بريطانيا وفرنسا أساسا، وهى بهذا قد ورثت نوية الراين القديمة التى تبددت الآن تماما وأصبحت ألمانيا مثل بولنده من اقل دول أوروبا يهودا. وخارج هاتين الدائرتين ينتشر اليهود فى شبه تجانس على نحو ما، ببضعة آلاف أو عشرات الآلاف لا أكثر فى بقية وحدات القارة . وبهذا وذاك جميعا نرى أن توزيع اليهود وكثافتهم تقل سريعا فى أوروبا شمال الألب من الشرق الى الغرب . وعلى العكس من هذا انحدارهم Gradient على الشاطئء الآخر من البحر المتوسط فى شمال أفريقيا ، فهم يقلون عددا ونسبة كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق ، من المغرب إلى الجزائر إلى تونس إلى مصر . ونطاق يهود أفريقيا العربية ، الذى كان يزن قبل الخروج الأخير نحو نصف المليون ، يكاد يكون المجال اليهودى الوحيد فى القارة باستثناء الطرف الجنوبى الأقصى فى جمهورية جنوب أفريقيا حيث جذبهم الاستعمار السكنى (١١٠ آلاف) . وكلا المجالين –

سيلاحظ - خارج مدارى بوضوح . أما بين المدارين فقليلة جدا هى الوحدات التي تعرف اليهود قدامى أو جددا ، وقليلة هى جدا أعداد اليهود فيها على أية حال - كاثيوبيا وبعض وحدات الاستعمار الأوروبي السابق فى مثلث القارة الجنوبي .

أما فى آسيا العربية - باستثناء فلسطين المحتلة منذ قيام إسرائيل - فقد أصبح اليهود مجرد بقايا لا وزن لها فى أي مكان ، بضعة آلاف أو مئات فى بعض وحدات منها وليس كلها . أما قبل ذلك فكانت أهم تجمعاتهم فى العراق (100 ألف) واليمن (٧٠ ألفا) بينما خلت وتخلو منهم بقية الجزيرة العربية . واليوم تأتى إيران كأكبر جالية يهودية فى آسيا خارج العالم العربى . (٨٠ ألفا) تليها الهند (٢٥ ألفا) - أما يهود تركيا فمركزون عمليا فى اسطنبول على البر الأوروبى لا الأسيوى . وربما اتت بعد ذلك جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بجالياتها اليهودية القديمة ، وجمهورية بوروبيدجان فى الشرق الأقصى السوفيتى بمستعمرتها الجديدة وعدا هذا فبقية آسيا "خالية" من اليهود إلا من اعداد رمزية بحة هنا وهناك .

أما فى العالم الجديد فإن اليهود يتركزون أساسا فى الشمال الشرقى ، الربع الغنى ، ثم تلى نوية ثانوية فى الغرب الأوسط وولايات الهادى . أما فى الجنوب عامة وولايات الجبال فيقتلون كثيرا . وبالمثل فى أمريكا اللاتينية يتركز اليهود على السواحل الشرقية أولا ، وفى النطاق دون المدارى أو خارج المدارى ثانيا ، كما فى البرازيل والأرجنتين . ومن هذا النمط ، وإذا تذكرنا معه انتقال أحد مركزى ثقل اليهود فى أوروبا من وسطها إلى غربها ، يمكننا بسهولة ان نتصور الكتلة الكبرى من اليهودية العالمية تتجاذب كما لو كانت مغناطيسا نحو سواحل المحيط الأطلسى شرقية وغربية . فإذا ما أضفنا الى ذلك نمط التوزيع فى أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال " أفريقيا تقليديا فى المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضى تتركز أساسا فى القلب القارى للعالم القديم

طفيليات المدن

تلك بصورة عامة الخطوط العريضة في توزيع اليهود على سطح الأرض . غير أننا ننسى نصف الحقيقة اذا نحن اغفلنا خاصية نادرة وشديدة اللاحاح والتواتر في التوطن اليهودي ، وأعنى بها سكنى المدن . فاليهود بالدرجة الأولى سكان مدن ، وسكان مدن كبرى بالدقة، ثم هن إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز. وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها. وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولاتتبلور كما تتبلور في وقتنا هذا. والأمثلة تغنى عن الحصر، ولعل أوضحها في الذهن المثال الأمريكي يهود نيويورك = 3.560.000 بينما يهود إسرائيل = 2.364.000 يهود نيويورك في 5 ضواحي أساسا : مانهاتن ، بروكلين ، برونكس ، كوينز ، ريتشموند ، مدرسي نيويورك يهود لذا المدارس تغلق السبت .

فمدينة نيويورك الكبرى تضم وحدها أكثر من مليونين ونصف مليون يهودي ، أي أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة وما يكاد يقارب كل يهود الاتحاد السوفيتي. وهي بذلك اكبر "ارساب" يهودي في أي نقطة منفردة في العالم : إنها تل اييب الكبرى ، بل أنها هي إسرائيل الكبرى .

وبقية يهود الولايات موزعة بين المدن الكبرى بصرامة. وتدل الدراسات السكانية في الولايات المتحدة على أن عدد اليهود في المدن يتناسب تناسباً طردياً مع أحجامها، فهم اقوى ما يكون في نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو، بينما لا وزن لهم مثلاً في مدينة بوسطن .

هل تريد مزيداً من الأمثلة ؟ في كندا حيث كل اليهود ٢٣٣ ألفاً نجد ٧٧ ألفاً في تورونتو، ٦٥ ألفاً في مونتريول. في باريس 175 ألفاً أي 50% من كل يهود فرنسا البالغين ٣٥٠ ألفاً. في لندن ٢٨٠ ألفاً من أصل مجموع 450 ألفاً .

مدينة تونس 55 ألفاً بينما أن دولة تونس 80 ألفاً اسطنبول ٥٠ ألفاً في حين أن كل يهود تركيا ٦٠ ألفاً. في جمهورية جنوب أفريقيا ١١٠ آلاف 50 ألفاً منهم في جوهانسبرج وحدها ، وفي أستراليا يتركز في ملبورن ٢٥ ألفاً وفي سيدني ٢٢ ألفاً من مجموع كلي قدره نحو ٥٧ ألفاً . وهكذا وهكذا .

حتى في فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٩ ر ٧٥ من سكان إسرائيل يتكدسون في المدن، وكانت بذلك ثالثة دول العالم بعد اسكتلندا ثم انجلترا وويلز في درجة المدنية والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك ان العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية. ولكنها ببساطة "حالة مدن" العالم انصبت واستقطبت في دولة .

والمعنى المباشر لهذا كله ان اليهود ، وقد راينا ان توزيعهم الفعلى ليس عالميا بالصورة المطلقة المرسومة فى أذهاننا ، أبعد شىء عن التوزيع "الغطائى" الشامل وإنما هم أدنى إلى التوزيع النقطة البحت. الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعا عالميا بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هنا وهناك .على أن هذا إن حدد مجالتهم الجغرافية، فإنه عادة ما يجعل منهم اقلية مهمة أو خطرة فى بيئاتهم المدنية تلك بل قد يؤلفون الأغلبية فيها أحيانا كما عرفت بالفعل بعض مدن بولندا فى القرن الماضي ، مما يفسر سيطرتهم المادية والسياسية من ناحية: ويضخم شعورهم بالذات من ناحية أخرى ، وبالتالي يفاقم من شدة التعصب ضدهم والاضطهاد من ناحية ثالثة.. إلآ نرد هذه الظاهرة المميزة إلى غريزة "طفيلية" استغلالية فى طريقة الحياة اليهودية ، أم إلى قوى ضغط خارجية ؟ يرى البعض أن قوانين العصور الوسطى حرمت على اليهود امتلاك الأرض وفرضت عليهم حياة "الجيتو" .

ولكن البعض الآخر يرى أن اليهودى مرتبط بالمال والتجارة والسمسرة والربا أبدا، وأنه يكره العمل اليدوى الشاق أو فى الخلاء، يكره بذل الجهد الجسمانى بعامة ، ويفضل ان يعيش بعقله لا بعضله **Brawn not Brain** من هنا - وليس من هناك يبتعد عن الزراعة أولا وعن الصناعة إلى حد بعيد ، ولذا لا يكثر فى المناطق الزراعية أو الصناعية ويتقاطر بعلى العكس فى المدن حيث الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية .. الخ .

والواقع أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودى زراعى واحد يستحق الذكر، وباستثناء بعض خلايا معزولة فى روسيا القيصرية وبولندا القديمة لا نعرف فى التاريخ الحديث أن اليهودى ارتبط بالزراعة. وبالمثل فى التعدين والصناعة : فمن الغريب ان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة على شدة تباين وتناقض مذهبهما - لا يعرفان يهوديا واحدا من عمال المناجم بالذات ! وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة ، فقديمًا كانت كلمة اليهودى مرادفة لكلمة التاجر ، وحديثا يحتشد اليهود فى الوظائف الحرة كالأطباء والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين فى ولاية نيويورك ودورها المحورى فى الاقتصاد الأمريكى تلخصه ببلاغة الكناية الساخرة "بالولاية الامبراطورية State Empire إشارة إلى ناطحة السحاب المشهورة !- نجد نصف هذا المجموع من اليهود .

ومن الواضح من هذا كله أن طراز حياة اليهودى هر الأعمال غير المنتجة والوظائف الطفيلية . ومن المحقق ان هذا سبب أصيل وعميق فى كراهية الأمم لهم ، ولعله - أكثر من التعصب الدينى البحت ربما المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم. واليهودى بهذا كله قد أصبح مركبا اقتصاديا اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة: كذاك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين "يهود جنوب شرق آسيا" ، وكذلك يوصف الهنود فى مدن ساحل أفريقيا الشرقية "بببهود شرق أفريقيا" ! ومهما يكن من أمر ، فإن

الحقيقة تظل قائمة من أن اليهود سكان مدن أساسا ، أكاد أقول "طفيليات مدن" أساسا، وتظل لها نتائجها الاجتماعية والجسمية التي ستعكس كما سنرى على مشكلتهم الأنثروبولوجية .

مجتمع الجيتو

لقد رأينا حتى الآن أن توزيع اليهود توزيع كوزموبوليتانى أولا، ومتروبوليتانى ثانيا، ولكن يبقى أخيرا أن نضيق بؤرة عدستنا أكثر وأكثر لنرى الخلية النهائية والأساسية فى توزيع اليهود.. أنها الجيتو حى اليهود أو معزلهم فى المدينة ! فطوال عصور التاريخ ، وفى كل البلاد والأقاليم، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة السكنية فى حى المدينة ، الجيتو كما يقال له فى كثير من بلاد أوربا وأمريكا، أو حارة اليهود: فى ألمانيا وكما نقول نحن فى مصر، وهو اليوديريا فى أسبانيا الوسيطة، Juderia أو هو المله Mellah كما يقال فى مدن المغرب العربى، أو القاع قاع اليهود كما فى مدن اليمن .

وكثيرا ماكانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة، وأحيانا كان الحى برمته يقام خاج اسوار المدينة الأم ذاتها أمعانا فى العزل . وفى الغالب الأعم يؤلف حى اليهود قطاعا من الأحياء الفقيرة المنحطة من المدينة ، ويكفى فى هذا الصدد أن نذكر كمجرد مثال حى ستينى وهو ايتشابل Whitcchapel Stepney فى الايست اند نطاق الفقر الشهير فى شرق لندن . ومع ذلك فقد كان اغنياء اليهود يتعدون هذا الحصار ليعيشوا فى الأحياء الراقية غير اليهودية ، كما أن تطور الحياة الاجتماعية يقلل الآن كثيرا من صرامة عزلة الجيتو .

ومع ذلك وعلى الفور نفهم ان العزل السكنى Segregation Residential هو قانون اليهودى فى المدينة. وكثيرا ما يرتد هذا العزل إلى قوانين الدول والشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها ، يفرضونه بالقوة على اليهود تباعدا عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو البارياء سننشأ كما يعبر ماكس فيبر، وكذلك احكاما للرقابة عليهم

وحصرا لأخطارهم. ولكن كثيرا ايضا ما يرجع هذا الى صنع اليهود أنفسهم، سعيًا منهم كأقلية مسحوقة إلى التركيز والاحتشاد فى نقطة واحدة ضمانا للحماية فى حظيرة واحدة. لقد بدأ اليهود رحلا فى عصر التوراة، وظلوا رحلا فى عالم الشتات، وكل قطعان الرحل أبوا إلا أن يعيشوا فى حظائر مسورة داخل مدن الشتات ..

الأصل الجنسى لليهود

حتى الآن لم نعرض الا لتاريخ اليهود عبر الزمان ولتوزيعهم فى المكان ، دون ان نتعرض للجانب الأنثروبولوجى البحت أصلا وجنسا. وقد آن لنا أن نسائل انفسنا : من هم اليهود وأين يقعون فى العائلة

البشرية ؟ ما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم، وإلى أي مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد إلى بنى إسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد ؟ وثمة علامات استفهام أخرى تتبع بالضرورة من تلك : هل ثمة من نقاوة جنسية يمتاز بها اليهود ؟ ما مدى الصحة في القول بأنهم والعرب " أبناء عمومة " ؟

على هذه الأسئلة يتوقف كثير من المزاعم والادعاءات السياسية، وعلى إجاباتها يتوقف الرد عليها وتفنيدها .

والواقع أننا ينبغي أن نلتفت بوعي إلى أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الأنثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسى كما يتمثل في الأطماع السياسية، كما ينبغي أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الأنثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقا بحيث تخدم دعاوهم الاستعمارية في فلسطين ، وصميم القضية أنهم، إذ يبحثون عن مبرر من الجنس للعودة إلى "أرض الميعاد" يشرع اغتصابهم لفلسطينا العربية، يركزون بورتهم على "النقاوة الجنسية" لليهود ، بمعنى أنهم بعد أن يخرجوا ببنى إسرائيل من فلسطين

الى الشتات يلحون فى أنهم ظلوا نقاة بمنأى عن الاختلاط الدموى مع الشعوب التي انتشروا بينها (الجوبيم كما يسميهم اليهود، أو الجنتيل Genlills كما يسمون هم أنفسهم ، أو «الأمم» كما نقول نحن العرب) ، وأن يهود اليوم أينما كانوا هم بذلك النسل المباشر لبنى إسرائيل التوراة ، ومن ثم فهم فى آن واحد مجموعة جنسية واحدة، وقومية تاريخية واحدة، مثلما هم طائفة دينية واحدة ومن ذاك جميعا يخلصون، لا إلى تدعيم اسطورة "الشعب المختار الشعب النقى الخالص فحسب ، وإنما كذلك وفى الدرجة الأولى الى تدعيم حق العودة المزعوم واغتصاب فلسطين بهذا تصبح قضية النقارة الجنسية قضية محورية فى المناقشة بالضرورة. والحقيقة أن فكرة النقاوة هذه منتشرة وشائعة إلى حد غير عادى، لا فى التقاليد الدارجة عند رجل الشارع الأوروبي فحسب ، ولكن حتى بين بعض من علماء الأجناس أيضا - لاشك لاعتمادهم على كتابات اليهود أنفسهم عن أنفسهم ، وهى الكتابات التي تبدأ من فكرة قبلية مسبقة موجهة إلى أهداف بعيدة غير موضوعية. ولكن هناك - لحسن حظ العلم - من وقف طويلا عند المشكلة باستقلال وموضوعيه ، وأثبت أن دعوة النقاوة أبعد شىء عن الحقيقة والواقع . وبهذا نكون ازاء مدرستين أو اتجاهين : اتجاه يرى اليهود متميزين مختلفين فى صفاتهم الجنسية عن السكان المحيطين مهما وأنى كانوا ، وبالتالي يؤلفون عبر العالم وحدة جنسية أو نمطا اثنولوجيا متفردا بارز الوضوح. واتجاه آخر يراهم صورة مقربة من السكان المحيطين فى كل مكان وانعكاسا لتركيبهم وتكوينهم الجنسى ، ومن ثم لا يؤلفون الا وحدة دينية لا جنسية أو جينية .

وبين الأنثروبولوجيين، يمكن أن نتخذ كون Coon رمزا بدرجة أو بأخرى للاتجاه الأول، بينما يقف ربلى Ripley علما على الاتجاه الثانى ونحن هنا سندير مناقشتنا بالفعل حول هذه الفكرة الفاشية فكرة النقاوة ، فنبدأ أولا بإعادة تركيب الصورة والأصل الجنسى ليهود التوراة فى فلسطين كنمط اثنولوجى

محدد، ثم نتتبع الصفات والملامح التشريحية والجسمية لليهود فى المهجر والشتات لنرى إلى أي حد تتفق مع ذلك النمط الأبوى الأصيل القديم وفى هذا المجال سنحاول أن نعزل أولا تلك الصفات والملامح التي تتكيف بالبيئة الطبيعية أو اجتماعية بحسبانها عناصر مكتسبة لا تكشف أصلا أو عرقا ، فلا يبقى بعدها فى البؤرة الا الصفات الوراثية الدفينة الحقة التي يمكن لها وحدها أن تقرر وتحدد مسافة الخلف أو القرب بين يهود التوراة ويهود اليوم، ومن ثم مدى النقاوة فالاستمرارية الجنسية بينهما . وبذلك كله نستطيع أن نحدد موقفنا من النظريتين الأساسيتين نظرية النقاوة ونظرية الاختلاط .

الاجماع بين الأنثروبولوجيين كامل على أن يهود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفاتهما التي نعرف ونرى اليوم من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول إلى توسط فى الرأس وقد اختلط يهود بنى إسرائيل فى فلسطين مع الجماعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين، وتمثلوا كثيرا من دمائهم وابتلعوا أعدادا منهم حتى أصبحوا هم أنفسهم مجموعة مركبة عبرية بعامة، ولكن تلك الجماعات نفسها لم تكن لتخرج عن نفس السلالة الجنسية القاعدية المتوسطية، ومن ثم لم يغير الاختلاط معها النمط الأساسى لليهود فى قليل أو كثير . والأدلة المباشرة لدينا محدودة ولكنها مقنعة . فثمة قليل من الجماع عثر عليها فى فلسطين وخارجها تعود إلى عصر سليمان وبعده ، وتشير إلى سلالة البحر المتوسط مع قلة نادرة من حالات عرض الرأس . وأهم من ذلك رسوم وتمائيل قدماء المصريين والبابليين التي تحدد كل الجماعات والعناصر التي ذكرنا ومن بينها يهود فلسطين الأوائل التي لا تختلف عن ملامح العموريين والساميين. فبينما يبدو الفلسطينيون كالأوروبيين

من سلالة البحر المتوسط ببشرة فاتحة اللون ، يبدو العموريون طوال الوجوه، ببشرة مصفرة واونوف محدبة، ويبدو الساميون الذين يشملون لاشك الكنعانيين بجباه مائلة وأنوف مبالغ فيها كأنوف العرب والعراقيين اليوم. وعلى هذا يمكن القول ان يهود فلسطين أيام داود كانوا سمرا من سلالة البحر المتوسط، على عدة أنماط ، واحد منها على الأقل طويل الوجه اقنى الأنف . وإذا أضفنا دلالة التوراة فيمكن أن نردف قصر القامة ، ففي التوراة يصف سفر الاعداد الإسرائيليين بالمقارنة إلى العموريين أبناء أنك بأنهم

" sight own their grasshoppers in as "يعني هنا أن نقف قليلا عند عنصرين بعينهما . وهم العموريون والحيثيون. فثمة نظرية قديمة كانت ترى فى العموريين (الشعب الأحمر) عرقا "نورديا" أشقر، وكانت ترد ما فى يهود اليوم من شقرة اليهم. ويبدو أن أصل اصل هذه النظرية يرقى إلى مؤرخ الشرق القديم سايس Sayee وثمة

نظرية قديمة كذلك كانت تعد الحيثيين من الأرمنيين Armenoids عراض الرعوس، وإليهم كانت ترجع عامل عرض الرأس وتحذب الأنف فى يهود اليوم، ولعل أول من روج لهذه النظرية هو ينسن Jensen. وهاتان النظريتان: اللتان كان هادون من أنصارهما، يمكن الترتيب على أساسهما للزعم بأن

اليهود يبدأون فى موطنهم الأول وهم مختلطون

ويمثلون أكثر من نوع أو نمط جنسي محليا وبالتالى يمكن على أساسهما. تفسير اختلافات الصفات الجنسية لليهود اليوم داخل حدود نظرية النقاوة الجنسية. غير أن كون يثبت خطأ النظريتين نهائيا فلم يكن العموريون شقرا أو حمرا بل صفرا، ولا كان الحثيون ارمينيين بصورة ما، بل ليس هناك دليل تاريخى على اختلاط مهم لليهود بهم لنحاول الآن أن نبحت عن يهود معاصرين يمكن اعتبارهم بغير شكوك استمرارا نقيا لبنى إسرائيل عصر التوراة حتى نقارن بين الطرفين .

ليس بالعالم اليوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات اليهودية منذ أولى مراحل نشأتها . ولهذا السبب لسنا نستطيع أن نعر أن أي جماعة من اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين تمثل تمثيلا صادقا يهود فلسطين أيام المسيح. ولكن لعل السامريين هم المجموعة الوحيدة من اليهود التي يتفق الجميع على أنها ظلت فى فلسطين كطوال التاريخ حتى يومنا هذا فى عزلة كاملة وتزواج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها ، وأنهم أكثر من أي مجموعة أخرى يمثلون العرق اليهودى الفلسطينى الأصلى القديم . هم فى قرية من قرى نابلس يقيمون ، وعددهم اليوم لا يعدو المائة أو المائتين ، أي أنهم يتجهون من قديم نحو الانقراض المحقق. هم متوسطو الرعوس الوجه طويل ضيق ، ولكن القامة أطول من المألوف المعروف عن اليهود ، كما يبدوون نسبة من اللون الفاتح أكبر من المعهود فى سلالة البحر المتوسط ، ولو أن السمرة تظل سائدة. وبالنسبة ليهود فلسطين بعامة فى أوائل هذا القرن - أي قبل هجرة الصهيونية - فالقامة قصيرة ، والرأس متوسط والوجه ضيق كثيرا، والأنف الأفتى يسود بين نحو ٨٠ من العينة المدروسة. أما الشقرة فلا وجود لها

صفات اليهود الجسمية

لعل الصورة الجسمية لليهودى القديم ، يهودى فلسطين قبل المسيح ، قد اتضحت معالمها العامة لنا الآن. ونستطيع إذن أن ننطلق فى جولتنا حول العالم لنقارن اليها صفات يهود اليوم . ولنبدأ ببعض الصفات والملامح الأكثر شيوعا فى التصور الدارج عن اليهود ، ولكن الأقل مغزى فى الدلالة الأثنروبولوجية، لنبدأ بالقامة وما يتصل بها من محيط الصدر، ثم بملامح الوجه عامة والأنف خاصة . من الشائع جدا عن اليهودى أنه قصير القامة ، إن لم يكن حقا كالفزم أحيانا. وهذا صحيح علميا - أو بالدقة كان - إلى حد كبير. فالدراسات المترية تظهره فى أغلب الحالات فى كل الدنيا اقصر من غير اليهود بضع بوصات تزيد أو تقل فقط بحسب طول القامة الساند حوله ، وفى المتوسط لا تتعدى تلك القامة عند اليهودى الناضج قامة صبى فى السادسة عشرة من الجنيتل الأمريكى. وحيث ترتفع نسبة اليهود عدديا - كما كانت الحال فى بولنده فى " القرن الماضى - يخفضون بوجودهم من مستوى أو متوسط القامة العام بنسبة وجودهم وبنسبة طول الجنيتل . ولا تكاد تعرف الأثنروبولوجيا استثناء لهذه القاعدة الا حالات نادرة: ففى يهود التركستان تتساوى القامة مع السكان المحيطين التاجيك ، وفى أوديسا وريجا وجد اليهود أطول من المسيحيين ، وفى تونس وجدوا أطول من العرب ، وقد رأينا منذ قليل أن السامريين ليسوا أطول من جيرانهم الفلسطينيين فحسب ولكنهم يعدون طوال القامة على أي مستوى .

هل يمكن أن يعد قصر القامة إذن صفة جنسية أصيلة من المركب اليهودى ؟ كلا على الأرجح ، رغم ذلك ورغم إشارة التوراة إلى الظاهرة . فمن ناحية لا يمكن أن نتكلم عن وحدة النمط اليهودى من حيث القامة، لأنه برغم سيادة القصر فإن هناك تفاوتات محسوسا بين مجتمعات اليهود المختلفة، وكذلك يتراوح اشكناز أوروبا فيما بينهم كثيرا. ومن ناحية أخرى فالثابت الآن علميا بلا مرأى أن القامة صفة جسمية مرنة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، بالصحة والتغذية ، وأنها صفة مكتسبة وظاهرة اجتماعية مثلما هى ، أو أكثر مما هى ،، وراثية جامدة .

وأغلب الظن أن قصر قامة اليهود هو وليد الجيتو وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد . كما أن من المعتقد أن تفشى عادة الزواج المبكر جدا بين اليهود حتى وقت قريب كانت مسنولة عن نوع من الانحطاط الجسمى انعكس على القامة . أما حين وحيث تزول هذه الظروف البيئية فإن قامة اليهود تنطلق لتقترب من قامة الجنيتل كما فى حى الوسط

اند الراقى بلندن وكما حدث حديثا فى الولايات المتحدة . ومن قبل كان اليهود أطول قامة فى أوكرانيا الخصبة منهم فى ليتوانيا الفقيرة المجدية .

عدا القامة الضئيلة، يوصف اليهودى عادة بضيق الصدر. والأدلة العلمية تؤكد مرة أخرى الفكرة

الدارجة فتجد محيط الصدر أقل كثيرا من المتوسط العام عند الجنيتيل، وسعة الرنتين ضئيلة والقفص الصدرى مسحوبا مسطحا .

والقياسات من مختلف أجزاء العالم لا تختلف فى هذا الصدر. ولكن مرة أخرى نعود فنجد أن هذه نتيجة طبيعية لنمط الحياة وللبيئة إلى جانب الحرفة. فالحرف الداخلية التي فرضها الجيتو على اليهود ، لاسيما الحرف اليهودية التقليدية منها كالخياطة والصياغة وصناعة الأحذية.. الخ ، ترتبط وثيقا بتلك الظاهرة. ولذا فاتها - كالقامة - لا يمكن أن تكون صفة جنسية أصيلة ولا دليلا قاطعا له وزنه فى تحديد الأصول الوراثية لليهود . وفى الولايات المتحدة حيث تحسنت بيئة اليهود جدا تختفى الظاهرة تماما .

وننتقل بعد هذا إلى جانب يبدو على السطح أكثر خطورة ومغزى، ولعله أكثر ما يقال عن اليهود شيوعا عند الرجل العادى ، وأعنى به ملامح الوجه أولا والنظرة العامة أو "السحنة" ثانيا. فالشائع الدارج أن اليهودى يتصف تقليديا بالسمرة (والمقصود هنا سمرة الشعر والعين لا البشرة، أي برونيت)، ثم بالأنف الأقي الضخم، والعيون المنتفخة، والشفاه الممتلئة . أما عن النظرة العامة فالمقول الشائع والمتداول هو أن هناك "نظرة يهودية" أو "سحنة يهودية" بطريقة ما تميز اليهودى لأول وهلة ويعرفها هو جيدا عن نفسه كما يعرفها الجنيتيل . فما مدى صحة هذه الأفكار الدارجة، وما قيمتها فى تحديد نقاوة وأصل اليهود ؟

أما أن اليهودى أسمر الشعر والعين، فحقيقة تؤكدتها الدراسة العلمية، ولكن لا كقاعدة عامة مطلقة وإنما كاتجاه سائد. وفى أجزاء كثيرة من أوروبا وجد أن نسبة السمر بين اليهود تصل أحيانا إلى ثلثى العينة المدروسة ، وأن هذه النسبة تعادل ضعفى مثلثتها بين الجنيتيل .

(ونسبة السمرة دائما أعلى - بالمناسبة - بين اليهوديات منها بين اليهود) . ومع ذلك ففى مناطق معينة من بولندا وجد أن نحو من ثلث إلى خمسى اليهود ذوو شعر فاتح. كذلك فمن الثابت أن هناك عنصرا أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين، يجنح بهم إلى اللون الصهب Rufous وحتى بين السفارديم هناك كثير من الشقر. وتبدو الشقرة واضحة كذلك فى يهود الالزاس واللورين ، وأوضح فى يهود انجلترا .

نصل من هذا إلى أن سيادة السمرة بين اليهود ليست إلا نصف الحقيقة، وربما كان أهم منها أنه ليس هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية ، ناحية أخرى أن تفاوت لون الشعر والبشرة بينهم ما بين شقرة وسمرة إنما هو ظاهرة لا يمكن أن تفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة أو بأخرى . فمن حيث الشعر والعين ، لا نجد فى فلسطين عامة شقرة ما (قبل إسرائيل) بينما يبدى قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة ، وفى العراق ودائرة القوقاز تسود السمرة ، هذا بينما فى شمال أفريقيا تحدث الشقرة بنسبة ٥ ٪

ترتفع إلى نسبة السدس بين سفارديم سالونيك واسطنبول ، وفى القرم ٧٥ ٪ سمر من البرونيت والباقى من لون فاتح ، ثم بين اشكناز أوروبا تهبط نسبة السمر إلى ٥٥ ٪ وتتحدد نسبة الشقر بنحو

١٠ % والباقي لون فاتح ، حتى إذا ما وصلنا إلى يهود ليتوانيا كان ٥٥ % من لون فاتح . فهذه إذن سلسلة تصاعدية يبدى لون اليهود فيها معامل ارتباط وثيق مع لون السكان المحيطين السائد .

ويرى كون ان اشكناز أوروبا قد حققوا لأنفسهم توازنا ثابتا بطريقة ما فى لون الشعر والعين : ففى البلاد التي يغلب على الجنتيل فيها الشقرة أو الشقرة على السمرة نجد اليهود اميل إلى السمرة نسبيا ، وفى البلاد التي تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فإن اليهود تميل إلى أن تكون أكثر شقرة . وسواء اتفق هذا الرأي مع معامل الارتباط الواضح فى السلسلة السابقة أو تعارض معه ، فالشئء المؤكد أن اليهود ليسوا متجانسين لونا أما عن لون البشرة نفسها ، فالفروق بين اليهود ليست أقل حدة ، وليس ثمة نمط موحد البتة . فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة عامة . وهم كذلك فى التركستان حيث يشبهون فى لونها لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم فى غزارة شعر الجسم . أما فى اليمن فهم إن بدوا أفتح قليلا من اليمنيين فما ذاك إلا لحياتهم فى الظل بعيدا عن العمل فى الخلاء . اما فى أوروبا فلا يختلف الاشكناز عن الأوروبيين فى لون البشرة . وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض ، فثمة اليهود السود " الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثى لليهود إلى اشكناز وسفارديم وشرقيين .

من هزلاء الفلاشة Falasha فى شمال الحبشة ، وهم إلى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الأجاو الكوشية القديمة . ومنهم كذلك فى أفريقيا الدجاتون Daggatuns فى جنوب الصحراء الكبرى . أما فى آسيا فهناك اليهود السود من التاميل فى كوتشين بجنوب غربى الهند ، وهم يسمون هناك هكذا تمييزا لهم عن جيرانهم " اليهود البيض " الذين ينحدرون من أصل فلسطينى منذ أيام الشتات الأولى . وربما جاز لنا أن نضيف إلى نماذج اليهود السود مجموعات فى أمريكا اللاتينية من الزنوج أو الخلاسين الذين اعتنقوا اليهودية أو اختلطوا بيهود مهاجرين .

ننتقل الآن إلى الأنف . فأما الأنف الأفتى المحدب الذى الصق باليهود واشاعه رسام الكاريكاتير حتى صار علما : " الأنف اليهودى " - فليس فى الحقيقة صفة يهودية . فالملاحظات

الأنثروبولوجية تثبت أولا أنه ليس منتشرا بين اليهود بدرجة خاصة أو غير عادية ، وأنه ثانيا منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حدود . فبين يهود بولندا لم تزد نسبة حدوثه على ٩ % من العينات ، وهى نفس نسبة البولنديين ، ولو أن النسبة ترتفع فى غاليسيا إلى ٣٠ % . وفى مدينة نيويورك لم يعثر على الأنف " اليهودى " الا بين ١٥ % من ذكور اليهود الراشدين . أما الشكل الأكثر حدوثا بين اليهود فهو الأنف المستقيم كما فى يهود شمال أفريقيا ويهود العالم العربى والسفارديم . مثلا بين يهود اليمن ٦٠ % انوف مستقيمة ، بل وهناك نسبة من الأنف المقعر .

وبين اشكناز اوربا تسجل القياسات سيادة الأنف المستقيم فى حين يقل الأنف المحدب عن النصف دائما . بل أن الأنف المقعر ليكثر بين يهود روسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة . فهناك

ترجح نسبة حدوث الأنف المقعر نسبة الأنف المحدب كثيرا، بينما فى ليتوانيا تصل نسبة الأنف المقعر إلى ٥٠ ٪ ويختلف الأنف المحدب كلية . الناحية الأخرى ، فالأنف الأفتى المحدب شائع بوفرة بين غير اليهود : وجد بين ثلثى العينة فى جنوب شرق بولندا، وهو منتشر كثيرا بين العرب والآفغانيين وكثير من الأوروبيين.. الخ .

ونحن اقرب إلى الصحة فيما يرى كون - حيث نصف الأنف الأفتى "بالأنف السامى" منا إذ نصفه "بالأنف اليهودى" ، ولو أن هادون يرى عكس هذا تماما حيث يقول أن تسمية الأنف اليهودى بالسامى خطأ شائع وأنه فى الحقيقة من أصل ارمينى .

وأيا ما كان ، فالذى يميز الأنف اليهودى حقا إنما هو تشكّل أو تشوه خاص يشمل انخفاض أو تدلى طرف الأنف مع ارتفاع جناحى المنخرين حتى ليبدو أن معلقين على الوجنتين ، مما يؤدى بالتالى إلى ظهور قصبه الأنف مرئية بوضوح . والظاهرة ككل يمكن أن تسمى "بالمنخره Nostrility" وتقرب بروفيل الأنف كثيرا من رقم 6 آلفرنجى مد ذيله. وهذا قد يعطى شعورا بتحدب الأنف فى حين أنه مستقيم فى الواقع. ولكن يبقى بعد ذلك كله أن هذا النمط لا يوجد لدى كل اليهود أو حتى أغلبهم. وفى النتيجة فإن من المستحيل

أن نتكلم عن نمط أو شكل يهودى بعينه من الأنف ، ولا يعرف اليهود وحدة انفية أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية .

تبقى العيون. الحاجبان، اللذان يبدو أن ثقيلين لسودهما، أميل عادة إلى أن يقتربا بعضهما من بعض . أما العيون فبينما نجد عيوناً شريطية غائرة بين اليهود العرب ، تسود بين أشكنازيم أوروبا العيون "المائية" الضخمة البارزة والجفون المنتفخة الثقيلة التى - كما يعبر ريلى - تعطى شعوراً أما بالحزن أو النظرة الحالمة وأما بالخبت المكتوم. على أن المهم أن ليس هناك عيون خاصة باليهود وبالمثل فإن ما يقال عن امتلاء الشفاه مع بروز الشفة السفلى مدلاة إن لم تكن مقلوبة. حقا، ليس شائعاً أو شرطياً بين اليهود .

يبقى الآن ما يقال عن "سحنة يهودية" بعينها يمكن بها التعرف على اليهودى . قد لا يمكن إنكار وجود مثل هذه السحنة أحيانا، ولكن المحقق علميا أنها لا توجد عند كل اليهود ، فهى إن كانت موجودة بين بعض الاشكناز فى أوروبا فإنها لا تكاد تعرف فى اشكناز أمريكا، كما أنها ليست غير معروفة تماما بين غير اليهود. ومن ثم فهى كثيرا ما تخذع للرأى فى التشخيص فيأخذ غير اليهود على أنه يهودى واليهودى على أنه غير يهودى . وإذا كانت هذه النظرة أو المسحة تتركز بطريقة ما حول العينين والأنف والفم ، فإن من الصعب تحديدها وقياسها .

ولكن الأهم من ذلك كله أن سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ما هي تعبير اجتماعي مكتسب من البيئة الاجتماعية، من صنع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الاخطار المستمرة حتى لقد اسماها البعض "تعبير الجيتو". إنها باختصار من فعل الانتخاب الاصطناعي لا الوراثة والبيولوجيا ، تثبتت عن طريق التزاوج الداخلي والانتخاب الجنسي والانتخاب الاجتماعي والمهني . ومعنى هذا إننا إذا صادفنا هذه المسحة اليهودية في الوجه فإنما هي مجرد إرث الاضطهاد الديني ايا كان الأصل الجنسي والسلالة العرقية ودون ان تعنى أن صاحبه من نسل بنى إسرائيل التوراة بالضرورة .

تلك إذن مجموعة من الصفات الجسمية المنسوبة إلى اليهود أو الملاحظة فيهم ، لا تدل على الأصل العرقي ولا تحسم مشكلة . وهي إن دلت على شئ فإنما تدل على انعدام أي وحدة بين يهود العالم في تلك الصفات، إن لم تدل حقا على تأثير بعيد المدى للسكان الذين يعيش بينهم اليهود ، أي على الاختلاط الجنسي وامتزاج الدماء . ولكننا نفضل أن نؤجل هذا الحكم ريثما نستكمل بقية صفات اليهود الجسمية .

فصل الآن إلى الصفات الجنسية التي تعد محور الدراسات الأنثروبولوجية جميعا، ترتبط مباشرة بالوراثة ولا تكاد تتأثر بالبيئة، ويمكن أن تكون مؤشرا وثيقا إلى الأصول الأولى ومقياسا ومحكا للنقاوة أو الخلط . إنها لا شك شكل الرأس .

وكما رأينا فإن يهود بنى إسرائيل في فلسطين التوراة كانوا ككل الساميين المحيطين طوال الرؤوس أساسا. فإذا ما وجدنا رؤوسا غير ذلك بين يهود اليوم فليس ثمة إلا تفسير واحد وحيد لا سبيل إلى الشك فيه وهو اختلاط الدم بعناصر غريبة. هذا مع التذكرة بأن سيادة طول الرأس نفسها بين أي مجموعة من اليهود لا تنفى عنهم بالضرورة امكانية حدوث اختلاط جنسى ما مع غيرهم من طوال الرؤوس ، لأن تزاوج طوال الرؤوس بطوال الرؤوس لا ينتج الا طوال رؤوس مثلهم. فكيف إذا رصدنا شكل الرأس عند اليهود

هي مسح عام ؟ من بين المجموعات الرئيسية الثلاث ، الاشكناز والسفارديم والشرقيين ، يقع الاشكناز جميعا بين عراض الرؤوس ، وأحيانا بين عراض الرؤوس جدا. هكذا هم في كل اوربا والعالم الجديد ابتداء من الفولجا حتى كاليفورنيا ، حيث تصل نسبتهم الرأسية إلى مثل ما للألمان الجنوبيين والفرنسيين الألبيين . بل أهم من هذا أنهم في ذلك يشبهون السكان المحيطين محليا ويقتربون جدا من شكل ونسبة رأسهم. فليس ثمة فارق مثلا بين اليهود والمسيحيين بالروسيا وبولندا في شكل الرأس ، بينما في منطقة القوقاز

تتحول رؤوسهم إلى شكل "قمع السكر" الشهير عند الأرمنيين والقفقاز، بل نجده حتى في يهود التركستان .

على أن كون يلاحظ أن الاشكناز في أوروبا يقلون في نسبة عرض الرأس - وإن يكن قليلا جدا درجة أو اثنتين عن السكان المحيطين ، كما أي وجوههم أقل استعراضا أو أكثر استطالة نوعا ما . ولهذا ينتهى كون إلى أن اليهود قد حققوا أيضا في مجال شكل الرأس توازنا ثابتا كما فعلوا في لون الشعر. هذا عن

الاشكناز ولقد كانت النظرية الشائعة بعد هذا ان السفارديم على طرف النقيض مباشرة من الاشكنازيم، أي طوال الرؤوس جميعا، ولكن هذه المقابلة تبسيطية أكثر مما ينبغي ، فحقا يغلب طول الرأس بين السفارديم، ولكن منهم جماعات استعرضت رؤوسهم كما فى شمال ايطاليا حول تورينو وغيرها، وربما لحقت بهم جماعات أخرى من سفارديم البلقان. ومع ذلك يمكن بصورة عامة جدا أن نقبل تلك المقابلة العريضة من قبيل التبسيط الميسور .

هذا ويلاحظ أن السفارديم يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لا يمكن للتزاوج أن يغير من شكل رؤوسهم وإنما على العكس يؤكد . غير ان مما يجدر ذكره أن أبعاد مقاييس الرأس المطلقة فى ذاتها أقل بعامة بين هؤلاء اليهود منها بين شعوب الجوبيم المحيطة، واقرب بذلك هكذا يقول كون إلى نمط يهود فلسطين التوراة أو السامرة .

يبقى اليهود الشرقيون. هؤلاء يأتون فى المنزل بين المنزلتين أو بالأحرى يقعون فى حدود التصنيف فجزء منهم طوال الرؤوس كالسفارديم، وهذا يشمل يهود مصر والشام واليمن والعراق وجنوب إيران. وهنا ايضا يلاحظ ان السكان المحيطين طوال الرؤوس ، إلا أن ابعادهم المطلقة أي حجم الرأس أكبر نوعا بدرجة وبالأخرى من اليهود .

أما الجزء الآخر فهو كالأشكناز استعرضت رؤوسهم كما فى شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال إيران، ثم يهود التركستان الروسية بكل شظاياها، وأخيرا اليهود القرائين فى القرم وليتوانيا . ففى كل هذه الحالات يعيش اليهود فى محيط واسع من عرض الرأس الشديد ، وفيه استعرضت رؤوسهم بشدة حتى لا يختلفون عنه البتة. إلا أن هناك فارقا فى شكل الوجه - لا الرأس - فهو يميل نوعا إلى الاستطالة بينما هو عريض بين السكان المحيطين ، وهو فى هذا يذكر الى حد ما بوجه يهود فلسطين التوراة ، والسامرة . ومع ذلك فهو أقل ميلا إلى الاستطالة بين يهود دائرة القوقاز والقرم منه بين يهود دائرة التركستان .

من هذا المسح السريع نصل اذن إلى أن اليهود يقعون من حيث شكل الرأس فى مجموعتين: عراض رؤوس وطوال رؤوس . والمجموعة الأخيرة تشمل أغلب السفارديم ونصف الشرقيين، أما الأولى فتضم النصف الآخر - الشرقى أو الشمالى - من اليهود الشرقيين بالإضافة إلى كل الاشكناز . ومن الناحية العددية ، ولها هنا مغزى كبير، تزيد مجموعة عراض الرؤوس على ٨٠ - ٩٠ ٪ على الأقل من كل يهود العالم ، والاقلية الضئيلة الباقية هى طوال الرؤوس . ومن الناحية الجغرافية ، يتوزع عراض الرؤوس من اليهود فى مناطق سكانها عراض الرؤوس ، ابتداء من وسط أوروبا حتى وسط آسيا، بينما يقيم طوالهم بين أجناس طويلة الرأس ابتداء من المغرب حتى العراق . ومن هذا وذاك يتضح على الفور ان الأغلبية الساحقة من اليهود إنما تحولت إلى عراض الرأس بعملية استعراض Brachycephalisation أو تأثر بالألبية أو الدينارية كما تسمى علميا -Alpinisa Dinaricisation lion وذلك عن طريق .

واحد ووحيد وهو التزاوج والاختلاط الجنسي مع غير اليهود بينما الأقلية التي احتفظت بطول رأسها الأصلي لا يتحتم بالضرورة أن تكون قد افلتت من مثل ذلك الاختلاط ، ولكنه أمر متروك فى هذه الحالة إلى الأدلة التاريخية. وهذا ما ينقلنا الى قضية النقاوة الجنسية والاختلاط، شواهدا وأدلتها ، أبعادها ومغزاها

نقاوة ام اختلاط يهود تأوربوا ام أوروبيون تهودوا؟

حسنا، بأى مغزى يمكن ان نخرج من هذه الدراسة، وأى معنى تحمل بالنسبة لدعاوى الصهيونية السياسية وغير السياسية؟ الشئ المحقق أن ما قد يختص ويشتهر به اليهود من طابع " أو "سحنة" مميزة هو أمر لا ينكره العلم تماما، ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنها برمتها ظاهرة حضارية من صنع اليهود أنفسهم ونتيجة لإحساسهم الملتهب بذاتهم طائفا وشعورهم المتضخم بكيانهم الدينى، وليست صفة جنسية دالة ولا تعنى البتة وحدة الأصل أو نقاوة السلالة. بل على

العكس من هذا تماما، يمتاز اليهود بمناقضة فذة وحقيقية جدا: شبه تجانس أو شبه وحدة جزئية فى السحنة والنظرة العامة ، وتنافر مطلق فى الأصل الجنسى . ويحاول كون ان يجعل من اليهود طوال الرعوس من السفارديم وبعض الشرقيين وحدة اثنولوجية Ethnic Unit قائمة بذاتها، قد تتباين فيما بينها من منطقة إلى منطقة، ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين. وبالمثل يصور اليهود الإشكناز ومعهم بقية الشرقيين على أنهم وحدة اثنولوجية أخرى. ومع ذلك فهو يعترف بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة فى أوروبا يمكن بسهولة أن تلتقط من مابين يهود القارة ، وأن أغلب اليهود يمثلون خليطا بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الأنواع والسلالات. وكذلك يضيف أن من السهل جدا أن نلتقط من بين يهود روسيا أفرادا يمتازون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير وعظام الوجنة البارزة بدرجة لا تفرقهم عن جماعات الفن المغولية التي تسكن منطقة الفولجا، بينما يوجد بين اليهود الألمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون . ويمكن من ناحيتنا أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايكو تكاد تغطى كل ما نعرف بين البشر من اختلافات. فى الصفات الجنسية. فثمة اليهود السود فى الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى. واليهود الملونون فى الهند ، بل والصفر أحيانا فى التركستان، وأخيرا اليهود الشقر فى أوروبا. أو كما لاحظ دالبي Dalby فى أواخر القرن الماضى هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود البيض والسمر والسود . هناك اليهودى الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الاشكناز، واليهودى النحيف دقيق الملامح طويل الرأس من السفارديم ، ثمة الأنف اليهودى المحذب والأنف المقعر بين كثير من يهود روسيا ، ثمة العيون اللوزية فى "السفارديم والمكتنزة الضخمة فى الاشكنازيم والعيون المغولية المسحوبة فى بعض يهود وسط آسيا .

وبعامة فإن السفارديم أشبه بعنصر البحر المتوسط والاشكناز اشبه بالصقالبة الشماليين . فضلا عن هذا فإن الدراسات السيرولوجية اثبتت تماما أن اليهود يبدون فيما بينهم معدل تفاوت كبير جدا فى فئات الدم مما ينفى تجانس الأصل ، وأكثر من ذلك لا تبدى تلك الفئات أى علاقة بفئات الدم عند اليهود

السامريين ، يؤكد عمق انفصالهم جنسيا عن الأصل القديم .

واضح تماما اذن أن الحديث عن وحدة جنسية بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الاطلاق ، وأن اليهود لا يعرفون الوحدة الجنسية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية . وواضح بالتالى أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم إنما هى محض خرافة كما يعبر ربلى. والواقع ان هذه قضية لم تعد ، بل لم تكن قط، موضع جدل بين العلماء . فكما قال رينان من قبل ، أن المغزى الاثنولوجى لكلمة يهود - على الأقل فى شرق ووسط أوروبا قد انتهى منذ أمد طويل . وفى نفس المعنى أكد دالبى أنه ليس ثمة بعد أي شيء كقضية جنس يهودى على الاطلاق . وكما يقول ربلى من بعد : ليس اليهود جنسا بل مجرد "ناس" بكل بساطة .

وعلى هذا الحكم الحاسم الأخير يعلق مؤلفو كتاب «نحن الأوربيين Europeans We وهم جوليان هكسلى وهادون وكارسوندرز: "ونحن نعتقد انه على صواب . إن اليهود لا يمكن أن يصنفوا لا كأمة ولا حتى كوحدة اثنولوجية، بل هم بالأحرى مجموعة اجتماعية - دينية تحمل قدرا كبيرا من عنصر البحر المتوسط والأرمنى وغيرهما كثير ،

وتتفاوت تفاوتا عظيما فى الصفات الجسمية " . ثم يضيف هؤلاء الكتاب قائلين "إن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين فى الأعم الأغلب ، فإنهم بالتأكيد يبدوون من الصفات الأرمينية أكثر مما يبدوون من الصفات «السامية» وأن النمط الجنسى الذى يميز طائفة السامريين ، وإن كنا نلقاه بين اليهود المحدثين إلا أنه بالتأكيد نادر بينهم ومن بعد ربلى ومن بعد معلقه أيضا يقرر هوتون Hooton بجزم قاطع "حقيقة هى لاشك ان اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعية متنوعة" . وهو إذا كان يجد فيهم قدرا ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية، فما هى بوحدة جنسية تماما ولا وطنية ولا لغوية ولكن إلى حد ما كل أولئك. ويؤكد اشلى مونتجيو Montagu Ashley نفس الانتهاء فيقرر على النقيض مباشرة من كون أن اليهود ليسوا وحدة اثنولوجية بل، بإصطلاحه، مجرد «معزولة حضارية. isolate.

Cultural والسؤال الآن: كيف تم اختلاط أو تخليط

اليهود ، وما هى الأدلة والشواهد التاريخية عليه؟

لنذكر أو لننتذكر أولا أن اليهود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة إثبات العكس على أساس أن حياة العزل فى الجيتو والعداء والاضطهاد الدينى عوامل مضادة للاختلاط والتزاوج.

ولكن الواقع التاريخى اليقيني كما سنرى يكذب هذا التصور أو التصوير تماما.

كذلك فإنهم يتخذون من أسماء الاشخاص اليهودية دليلا على عدم التزاوج، فعلى سبيل المثال أسماء

كوهن وكوهين.. الخ تشير إلى نسل الكرهانيم أو الكرهانين Cohanim أبناء هارون وكهنة المعبد

القدامى (والاسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أي دم غريب. ولكن

الحقيقة ان هذا الاسم خرج عن حدوده الأصلية وأصبح أكثر أسماء اليهود شيوعا . ومن الناحية

الآخرى، فإن أسماء يهودية أصيلة وبحتة هى اليوم من أكثر الأسماء شيوعا بين الملايين من

المسيحيين فى أوروبا. فكيف

حدث هذا بغير التزواج والتحول ؟ الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمى فحسب ، ولكنه أيضا انتهازى ومغرض بوضوح، ولذا لا يمكن الاعتداد به فضلا عن الاعتماد عليه. ويكفى للتدليل على هذا الذى نقول أن نذكر موقفهم أيام اضطهاد النازية فى ألمانيا. فلما كان كل شىء يقاس حينذاك بالجنس النوردى والأصل الآرى ، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والأصل ليفلتوا من عقاب ولعنة السامية. أما الآن بعد اغتصاب فلسطين ، فكل دعواهم أنهم ساميون لحما ودما! ولكى نعرف أين الحقيقة فى هذا الانقلاب الإنتهازى الفاضح ، يكفى أن نورد تعليق هوتون على اضطهاد ألمانيا النازية لليهود حيث يسخر قائلا أن اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردى مثلما يمتلك الألمان أنفسهم ولاشك ان مما له مغزاه كذلك أن القليل من الكتاب الذين يأخذون بنظرية نقاوة اليهود الجنسية هم من دعاة النظريات العنصرية التي نبذها العلم تماما مثل هوستون ستىوارت تشمبرلن الذى يزعم أن تلك النقاوة هى سر قوتهم مثلما تجعلهم "غرباء بين كل الأمم" التزواج والتحول إذن حقائق لاشك فيها ، وعليها يجمع جمهرة الأنثروبولوجيين ابتداء من كين إلى ربلى إلى كون.. الخ . فهذا كين يتكلم عن "الزيادات الضخمة من (الجنتيال) المتحولين" ، ويقول "أن آفترض بأن اليهود ضموا قليلا أو لا شىء من المتحولين هو افتراض لم يعد بعد مقبولا" ويضغط مؤلفو "نحن الأوروبيين، خاصة على نقطة مهمة وهى أن نمو أعداد اليهود فى المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة إنما يرجع فى جزء منه إلى التحولات الضخمة إلى اليهودية أما ربلى فيقرر ان ليس ثمة أسير من اثبات الاختلاط والتزواج والتحول بين اليهود والجنتيال فى أوروبا وخارج أوروبا .

ولقد كان هناك طريقتان أساسيان لانتشار اليهودية وتمدها: التحول الدينى سواء من الوثنية أو المسيحية، والتزواج والامتزاج الدموى. وللتحول شكلان رئيسيان: التحولات بالجملة ، وهى معروفة محددة تاريخيا أهمها حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التاميل واليهود القرائين فى طوروس .

الشكل الثانى هو التحولات الفردية المستمرة فى كل مكان وزمان. أما التزواج فشكلاه الزواج العلنى والسرى أو العلاقات الجنسية غير الشرعية . وكتاب اليهود يصرون على ضالة دور التحولات بعامية والتحولات الجماعية بخاصة فى انتشار اليهودية. وعلى أية حال فلا شك أن اليد العليا كانت دائما للترزواج، هادنا ودفينا ومزنا .

وقد ارتفع التزواج المختلط بين اليهود والجنتيال الى نسب عالية فى فترات الهدوء وتوقف الاضطهاد، فإذا كان الزوج يهوديا نشأ الأبناء يهودا ، ولكن كان يحدث أحيانا أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الأبناء من ديانة الأب .

أدلة الاختلاط التاريخية

فى ضوء هذه الأسس العامة نود الآن أن نستقرىء وقائع التاريخ نفسه ، ماذا تقول وكيف تحكم فى قضية الاختلاط والتحول. فإذا بدأنا عرضنا التاريخ من البداية، فسنجد أن يهود فلسطين التوراة تخطوا فى عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودى ودليلة الفلسطينية) ومع جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال: " امك كانت حيثية، وعموريا كان ابوك ") . وهذا الاختلاط الجنسي كان اقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعا منه فى قلبها الوعر المعزول. وكثيرا ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات "وثنيات" من الأجانب المحيطين أن يتركوا الوطن إلى تلك السهول المجاورة . كذلك فمن الثابت ابان الأسر البابلى الذى استمر ١٤ عاما ان كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة .

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنثيل لم يكن قط جنسيا بل دينيا ، بحيث ينتهى إذا تحول الجنثيل إلى اليهودية، والواقع أنه فى ايام اليهودية الأولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعا أبدا، كما حدث فيما بعد . هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس ان يهود انطاكية نجحوا فى تحويل الكثيرين إلى عقيدتهم وأدخلوهم مجتمعهم. وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول الى اليهودية بلا شك فى القرن الثانى الميلادى .

ومن الأمثلة المهمة النساء اليهوديات اللاتى تم بيعهن كاماء وأخذن إلى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان، وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم إلى مواقع أخرى ، فشب ابناؤهم كيهود والثابت ان التحول والاختلاط كانا من المظاهر المتفشية قل العصر المسيحى مباشرة وفى قرونه الأولى . فحين تشتت اليهود فى العالم المتوسطى وجدوا أنفسهم ازاء اختياريين : إما أن يرددوا وثنيين كجيرانهم الجدد، و إما أن يحتفظوا بديانتهم. وهناك كما يقول بيرجل - "أصبح الكثيرون ، ربما الأغلبية وثنيين ، وذلك لأن من

بين القبائل الاثنتى عشرة عشرا «مفقودة» كما تحدثنا الروايات . وفى حالة التحول كان اليهود يفقدون كياناتهم الجنسية جنبا إلى جنب مع كياناتهم الدينية ، ويصبحون جزءا لا يتميز عن الأمة التى أقاموا بينها. اما إذا ظلوا على يهوديتهم، فانها اذن العزلة الاجتماعية، ومن ثم فلا تزواج إلا إذا تحول الوثنيون إلى اليهودية، وهذا بالدقة ما حدث

مرارا وتكرارا لأن اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عبر قرون طويلة ، وهذا ما يفسر جزئيا تنوعهم وتباينهم الجنسي . إلا أن الموقف تغير بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، حيث أصبح التحول إلى اليهودية صعبا، ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف .

أما فى العصور الوسطى حيث أصدرت المجالس الكنسية قرارات صارمة بمنع زواج المسيحيين باليهود كما فعل مجلسا توليدو عام ٥٣٨ ، ٥٨٩ ، ومجلس روما عام ٧٤٣ ، فإن أغلب الكتاب يفسرها على انها دليل على خطورة المدى الذى كان الزواج المختلط قد وصل اليه بالفعل . بل أن اضطهاد القوط الغربيين فى أسبانيا لليهود فى القرن الخامس والسادس الميلاديين إنما يرجع كما يؤكد كين إلى نشاطهم التبشيري الخطير والى تفشى الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين . وثمة أدلة أخرى على الاختلاط والتحول على نطاقات اقليمية كبيرة . فالسفارديم قبل خروجهم من أسبانيا كانوا قد استوعبوا دماء أيبيرية وغربية وبربرية كثيرة فى عروقهم . وفى شمال أفريقيا من المؤكد كما رأينا أن اليهودية كانت قوية الإنتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الاسلام مباشرة وفى المغرب يبدو اليهود

المتكلمون بالبربرية اليوم مختلفين بشدة عن يهود السفارديم المتكلمين بالاسبانية فى المدن المغربية بينما أن اليهود المتكلمين بالعربية فى نفس المدن ينحدرون من أكثر من أصل يهودى واحد أهمه بلا شك العنصر البربرى . أما فى اوربا فالأدلة التاريخية تشير بكل قوة إلى أن اجداد الأشكناز اختلطوا مع أبناء غرب اوربا إلى ما قبل الحروب الصليبية الأولى اختلاطا أقوى من اختلاط أجدادهم الأحدث مع أبناء البلاد السلافية فى شرق القارة . فغزارة شعر اللحية والجسم وتموج شعر الرأس ، إلى جانب عرض الرأس ،

تدل على تأثير جنسى ألبى فرنسى أو ألمانى أكثر منها مؤثرات سلافية . أما عن التحول ، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدم مسيحيين ، خشية تحولهم إلى اليهودية ثم الزواج بهم . إلا أن الأرجح أن هذا المنع لم يجد نفعا ، حيث نجد على سبيل المثال كبير اساقفة المجر يقرر فى عام ١٢٢٩ أن كثيرا من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات ، وأن التحولات "بالآلاف" كانت مستمرة وفضلا عن هذا ، فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والأقنان من امكانية التهود والزواج من اليهود . وفى أسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد أجبر مئات من الآلاف من

اليهود على التنصر بالقوة والتحول إلى المسيحية حيث ذابوا بعدها فى السكان . أما فى عصرنا الحديث فتتوافر الأدلة والأحداث الثابتة التي تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء . فمع الهجرة إلى العالم الجديد تحول كثير من الهنود الحمر والزنوج فى أمريكا الوسطى والجنوبية إلى اليهودية - ولا علاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود اصلا . ومع اختفاء التعصب الدينى فى أوروبا الصناعية ، وأكثر منه مع العلمانية المطردة ، انهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية . وإذا كانت التحولات الجماعية بالجملة قد قلت ، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية فى

العصور الحديثة ، ويمكن أن نتخذ من بعض الأسماء مؤشرا فى ذلك الاتجاه: مثلا الشاعر هاينى

والموسيقى مندلسون وغيرهما من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية . وفي روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحويلهم إلى المسيحية .

ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود في العصور الحديثة والوسيط في أوروبا ما كشفت عنه تجربة النازية في ألمانيا . فقد كان على المرء الذي يرغب إثبات الدم الأري فيه ان يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الأرية، يعنى هنا اليهودية بالتحديد . ولكن المفاجأة أن التجربة كشفت أن عددا ضخما من الحالات من المواطنين الألمانين " الى أقصى حد " ثبت أن أجدادهم وأجداد أجدادهم تجرى في عروقهم الدماء اليهودية !- تماما كما تردد عن ريشار فاجنر من قبل.. وفي العام الماضى فقط أخرج كاتب فرنسى كتابا كان له دوى كبير حيث أثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجرات الأنساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة في العالم الغربى من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء... إلخ. كيف تجرى في عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى ، وبالعكس فإن كثيرا من اليهود المعروفين داخلهم دماء مسيحية. أما في الولايات المتحدة، حيث أعظم مستعمرة لليهود اليوم، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود أنصاف وأرباع اليهود ... إلخ ، لاسيما منذ القرن الماضى حين أصبح الزواج المدنى مباحا وقانونيا .

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى أخرى لا تقل أهمية ومغزى ، تلك أعنى ظاهرة ذوبان أو

انصهار اليهود واندماجهم أو امتصاصهم في شعوب العالم المعاصر الحديثة

Assimilation، وموقف الصهيونية السياسية منها . فالصهيونية إذ تحاول عبثا أن تجعل من

اليهودية العالمية شعبا وقومية وأمة بل وجنسا مستقلا وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر ، وتجمع بين عشرات الشعوب والقوميات والأمم والأجناس، لا تزيف حقائق التاريخ الواقع فقط ، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى إلى تجميد تطور المجتمع الإنسانى .

فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود في أوربا الوسيطة والحديثة لا يرجع

إلى التعصب الدينى وحده بقدر ما يرجع الى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب إحساسهم المتضخم بأنفسهم وادعاءاتهم بالتفوق الموهوم، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الاقطاع والحكم الاوتوقراطى المطلق ومناخ الطبقة التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعة لهذا الاضطهاد بمثل ما أن هذا الاضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة لليهود أنفسهم إلى مزيد من الاصرار والتمسك بانعزاليتهم وانفراديتهم وتضادهم .

وهى - الصهيونية - ترى الآن ان روح الليبرالية المعاصرة السارية وتطور الوعى السياسى فى المجتمع الصناعى الحديث ومثل التسامح الدينى إن لم يكن اللامبالاة الدينية ،

كلها ظفرات جديدة وخطيرة "تهدد" بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية ، وبالتالي تهدد بسقوط

الستار الحديدى الذى ضربه اليهود حول أنفسهم وانتفاء التضاد السادى - المازوكى الذى افتعلوه مع

بيئاتهم ، ومن ثم تهدد بذوبانهم فى شعوب الأمم ثقافة ولغة بل ودينا وجنسا .

ومن هنا تصل الصهيونية فى انحرافها إلى حد الشذوذ الفكرى والعنصرى ، فنجدها تحاول محموعة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحة وتجسيد اسطورته إلى الأبد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذى يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل اخطر ما يتمثل فى التزاوج المختلط مع غير اليهود ، وفى تحول بعض اليهود إلى عقائد أخرى . ولئن كان هذا اليوم أوضح واخطر مايكون فى بوتقة الولايات المتحدة ، فإن أوروبا الغربية تعرفه أيضا بدرجة أو بأخرى . والخط التاريخى الذى أكد نفسه منذ البداية وهو تخطط وتهجن اليهود وذوبانهم جنسيا، يعيد اليوم تأكيد نفسه برغم انحرافات وشعارات الصهيونية ، بل ويفرض نفسه أكثر منه فى أي وقت مضى .

ولنقف هنا قليلا عند يهود الولايات المتحدة الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة فى الحيثية المدنية، كما فى الولايات ، فكثيرا ما يتزوجون من الجنتيال . فإذا أصر الطرف اليهودى على أن يغير الطرف الآخر عقيدته نشأ الأبناء يهودا وظلت الاسر يهودية . أما إذا تحول الطرف اليهودى إلى المسيحية فقد يتزوج الأبناء فيما بعد يهودا ويعودون بذلك إلى اليهودية ، والا فإن الاسرة اليهودية تنقرض فى النهاية. غير أنه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود إلى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهوديا وهكذا فإن التحول الدينى يؤدى فى النهاية إلى التمثل والانصهار مع المجتمع الأمريكى .

والاحصائيات تدل على زيادة مطردة فى الزيجات المختلطة بين اليهود . فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين أن نسبة الزواج الداخلى بين اليهود فى مدينة نيوهافن عام ١٩٤٦ كانت ٩٧% ، وأن ٣% يتزوجون خارج الطائفة . ووجد بحث آخر أن نسبة الزواج المختلط فى نفس المدينة ارتفعت من ١ ر ١% إلى 3٦% بين 1900 ، ١٩٤٠ ، أي أنها وصلت إلى ضعف التقدير الأول. والواقع أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية. وإلى جانب ذلك فإنهم كمجتمع مدن أساسا يمتازون بمعدل مواليد منخفض ، بل أشد انخفاضا منه بين أي مجموعة مدنية أخرى ، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعى وفى النتيجة - هكذا ينتهى كاتب مثل بيرجل - فإن يهود أمريكا لابد أن يتناقصوا عدديا سواء على الإطلاق أو بالنسبة إلى مجموع السكان ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار فلا مفر لهذا التناقض من أن يشتد ويشد . ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية فى الولايات المتحدة "ظاهرة عابرة" فى نهاية المطاف ، ولا يؤخر اختفائهم النهائى الا ضد السامية أكثر من أي عامل آخر. ولا سبيل إلى الشك فى صحة هذه النبوءة العلمية ؛ فالصهيونية نفسها على وعى تام بها ، وهاهى ذى جولدا ماير أعلنت أخيرا.

صرخة محموعة أنه فى خلال جيل أو اثنين سينتقص يهود الولايات المتحدة إلى ١٥ مليون نسمة . لقد شهد شاهد من أهلها - اقصد اعترف متهم من عصابتها .

لن يجدى اذن تصايح وصراخ الصهيونية العالمية شيئا ازاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التي لا مكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو ، وأين ؟ فى قلب دوامة تلك الحفارة وفى عين إعصارها فى الغرب الأوروبى والأمريكى وإذا كانت العصور الوسطى هى عصر تحول غير اليهود إلى اليهودية، فإن عصرنا أصبح بوضوح تام عصر تحول يهود إلى غير اليهودية! من هنا نفهم كيف ان الصهيونية "تتاجر" بالفعل فى الاضطهاد ، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلما خبت جذوتها أو رمادها وتراه ضمان بقائها ، فى الوقت الذى تمثل فيه إسرائيلها دولة المنتفعين بهذا الاضطهاد . بل أن الفكرة الجذرية فى خلق إسرائيل ليست فى النهاية الا فكرة الجيتو بحذافيرها وإنما على مقياس مجمع كبير.

فهى وعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهود على الجوبيم وتضادهم معهم: إنها الجيتو دولة أو هى دولة الجيتو. ولكن كما ذاب ويزوب الجيتو فى الخارج لن يمضى وقت طويل حتى يزول جيتو إسرائيل إلى الأبد .

وبعد ، فلقد انتهت رحلتنا عبر التاريخ بحثا عن الأدلة والشواهد اليقينية على اختلاط وذوبان اليهود ، فهل يمكن من محصلة هذا العرض المفصل ان نضع ايدينا على جوهر وميكانيزم العملية كلها؟ نعم، وجغرافى يهودى بالذات - هنتجتون - هو الذى يضعها بين أيدينا ! فطوال التاريخ - كما يقول نلمح ظاهرتين أساسيتين : أعدادا ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية ، وفى نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية .

وفى النتيجة فإن جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر وفى ابتعاد دائم عن الأصول الأولى بحيث يتضاءل أبدا وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بنى إسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تختفى وتنقرض فضلا عن أن تظل قابلة للتعرف عليها وتحديدها. إنها عملية إحلال وإبدال مزمنة دائما، معدية أحيانا، ظاهرة ومستترة ، ونيدة ربما ولكنها أكيدة قطعاً. إنها تكاد تقول عملية تغيير دم "كلية وشاملة" .

وفى النتيجة يكاد يصبح جسم اليهود فى آخر المطاف شيئا مختلفا انثروبولوجيا عن يهود التوراة إن لم يكن لا علاقة له بهم تقريبا أو فى الأعم الأغلب. ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق أن المحنا اليه بشأن تعداد اليهود حيث بدأوا الشتات بأرقام هزيلة جدا ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات .

نستطيع إذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان إلى أن اليهود يتألفون من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط. وإذا كان ثمة خلاف بعد هذا، فإنما يدور حول المدى والدرجة والى أي حد. هنا نجد راينين أساسيين : فيرى ربلى أن اليهود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون بينهم وأبرز ما يتمثل هذا فى شكل الرأس ، الأساس الانثروبولوجى الأول والجوهر ، ثم إلى حد ما فى لون البشرة ، وبناء على هذا يقبل رأى لومبروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسيا آريون أكثر منهم ساميين أو بتعبير آخر إنهم أوروبيون تهودوا أكثر منهم يهودا تأوربوا "والى نفس المدرسة والرأى ينتمى

مؤلفو "نحن الاوربيين" إن اليهود - هكذا يؤكدون - من أصل مختلط ، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطا". ثم يضيفون "كان هناك دائما قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التي اقاموا فيها .

بحيث أن عددا من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان ، وأن المجتمعات اليهودية أصبحت تشبه السكان المحليين في كثير من الخصائص. وبهذه الطريقة أصبح يهود أفريقيا وشرق أوروبا وأسبانيا والبرتغال ... الخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض في النمط الجسمي " ويؤكد نفس الكتاب الفكرة في موضع آخر قائلين "والنتيجة أن يهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين جينيا وأن السكان اليهود في كل بلد يتداخلون ويتشابكون مع غير اليهود في كل صفة يمكن تصورها. وكلمة يهودى صحيحة كوصف اجتماعي - ديني أو شبه قومي أكثر منها كتعبير اثولوجي في أي معنى جيني (ولو أن هذا لا يقصد به أن اليهود أمة بالمعنى المفهوم للكلمة) . وكثير من الصفات «اليهودية» هي بلا شك نتاج التقاليد والتربية اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجي والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة"

ومرة ثالثة يضغط هؤلاء المؤلفون على نفس الانتهاء فيقولون إن "ما احتفظوا به وورثوه ليس «صفات جنسية ، بل تقاليد دينية واجتماعية .

فاليهود لا يؤلفون جنسا محددًا وإنما مجتمع يشكل جماعة شبه قومية ذات أساس ديني قوى وتقاليد تاريخية خاصة. وأنه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن «جنس يهودى» تماما كما لو تكلمنا عن جنس أرى هذا عن الرأي الأول فى اليهود . أما الرأي الثانى فيمثله كون الذى يقبل تشكيلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يرى فيهم إلى جانب ذلك

اثار الأصل الفلسطينى العبرى القديم بخصائصه المتوسطة، وبخاصة فى شكل الوجه الطويل وابعاد أو حجم الرأس الصغير. ومن هذا المنطلق يدير كل مناقشته على أساس ان اليهود اليوم فى بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئات تحولوا إلى اليهودية ، وإنما هم فى الأغلب الأعم يهود حقيقيون من أبناء الشتات الفلسطينى امتزجوا دمويا بأبناء تارك البيئات الأصليين مثلا: يهود العراق يهود حقيقيون وليسوا عراقيين تهودوا، يهود بخارى والتركستان ليسوا مجرد تاجيك أو سارت تهودوا بل أصلا

يهود ولكن استعرضت رؤوسهم بالاختلاط بهؤلاء ، ويهود وسط أوروبا ليسوا ببساطة أوروبيون تهودوا وإنما يهود تأوربوا.. ويقدر كون - كمجرد تخمين بحث كما يعترف أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطينى الاصلى فى يهود أوروبا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع العناصر الداخلة فى تكوينهم ، وهى بذلك أهمها .

ومن هذا كله ينتهى إلى أن اليهود "ليسوا مجرد كومة عشوائية Grob-dag توحد بينها رابطة مشتركة من الدين بلا تماسك بيولوجى أكثر مما لوحداث عفوية كمستمعى الراديو أو عاملات الحياكة"

! وقد يمكن أن نعد موقف هنتجتون قريبا من موقف كون ، حيث يسمى اليهود - بلغته الخاصة - «مجموعة قربى Krrh» شأنهم في ذلك شأن البيوريتان أو الماوري أو الاغريق (كذا) غير أننا نرى في هذه التشبيهات المتنافرة ما يعقد الصورة أكثر مما يبسطها، ويكفى ان نتخذ من كون علما على الرأي ورمزا له أين تقع الحقيقة بين هذين الرأيين - والفارق بينهما فارق كبير في الدرجة يوشك أن يكون فارقا في النوع ؟ هذا هو السؤال. المحقق أننا لا يمكن علميا أن نستبعد من بعض من يهود العالم نسبة ما من الأصل الفلسطيني القديم. ولكن من المحقق أيضا أن تقدير كون وتصويره يبالغ بعامة في تلك النسبة . فالملاحظ أولا ان الفروق الجسمية التي يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالبا وواهية جدا أحيانا. وثانيا وأهم من ذلك أنه مادامت الدماء الأجنبية الغربية قد غزت اليهود وداخلتهم حتى ولو كانوا من أصل فلسطيني قديم - إلى الحد الذي يقربهم - على الأقل من هؤلاء الجيران ، فقد ابتعدوا وانفصلوا تماما عن ذلك الأصل السحيق . وليس من المتصور أليس كذلك ؟- غير هذا بعد نحو ألفي سنة من التشتت والاختلاط ، لاسيما إذا تذكرنا - وهو اعتبار مهم للغاية - ان كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثاني لم تزد عن ٤٠ ألفا ! وهذا الرقم وحده يكفي ليوحى، رغم كل قيود العزل والاضطهاد ، بأن يهود الشتات الاصلاء قد ذابوا وانصهروا وضاعوا في محيط المهجر كقطرة في بحر ، وأن يهود العالم اليوم في سوادهم الأعظم هم أجانب متحولون أكثر منهم يهودا متحولين .

ماذا يتبقى فيهم إذن من بنى إسرائيل التوراة و من بنى إسرائيل التوراة فيهم ؟ إن من يمكن أن يعد منهم من نسل بنى إسرائيل التوراة حقا ومباشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضالة إلى أقصى حد . مثلا في أواخر القرن الماضي يجد الأنثروبولوجي المخضرم المعروف فيليكس فون لوشان Luschan Von أنه «من بين يهودنا المحدثين نحو ٥% عراض رؤوس ، 11% ذوو بشرة بيضاء وما لا يزيد عن ٥% يتفوقون مع ما عرفنا أنه النمط السامي القديم . وهذا يتفق تماما مع ما تؤكدته دراسة حديثة جدا قام بها في العام

الآخر فقط انثروبولوجي بريطاني هو جيمس فنتون على يهود إسرائيل توصل فيها إلى أن ٩٥% من اليهود ليسوا من بنى إسرائيل التوراة، وإنما هم أجانب متحولون أو مختلطون . ولئن صح هذا ولعله صحيح، وهو بالتأكيد اقرب إلى الصحة والمنطق من تخمينات كون - فمعناه ان الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبثة وفاقدة تماما من الناحية العملية، وأنهم بالفعل اوروبيون سلاف أو آريون أكثر منهم ساميين. وهذا يصدق على الأشكنازيم في أوروبا، وعلى امتدادهم الأمريكي الذي زاد اختلاطه في البوتقة الأمريكية، أكثر منه على أية مجموعة أخرى من اليهود ، مع ملاحظة أنهم - الأشكنازيم - هم السواد الأعظم من يهود العالم عدديا .

والخلاصة الموضوعية أن يهود العالم اليوم مختلطون في جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أي اصول إسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل في تكوينهم إلا قطرة في محيط . وإذا كان ثمة تحفظ ما،

فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان اقل تهجنا وتخلطا والبعض أكثر كالأشكنازيم. غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هي أن الأقل تخليطا إنما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضالة من مجموع اليهودية العالمية ، بينما أن المخلطين تماما والذين ابتعدوا جدا أو كلية عن

الأصول الأولى يشكلون الأغلبية الساحقة منهم . ومن هنا فلا جناح علينا إذا نحن قررنا في النهاية ان اليهود اليوم ليسوا من بنى إسرائيل ، وأن هؤلاء شيء واولئك شيء آخر انثروبولوجيا، وألا رابطة بين الطرفين إلا الدين والدين فقط .

أفكار خاطئة

وتخريجا من هذا وترتibia عليه ، تسقط على الفور عدة أفكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا ظل لها من الحقيقة فى نظر العلم الصحيح فأولا ، مادام اليهود لم يعودوا من الساميين فى شىء، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع الفاشي ، إن لم يكن المغالطة الكبرى العامة ، فى تسمية اضطهاد اليهود "بضد السامية" ، فنحن فى الحقيقة ازاء "ضد اليهودية" ببساطة وبلا تعقيد. وإذا كان الألمان يتكلمون عن ضد الساميه وكراهية اليهود كمترادفين ، فإن التعبير الآخر أدنى إلى الحقيقة العلمية من الأول ولا تفسير لهذه

التسمية الخاطئة أنها تعتمد على أسس أو مداورة الإنجيل والتوراة التي تسبق بكثير التغير الجذرى والإحلال والإبدال المطلق الذى لحق دماء اليهود .

والاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا لم يكن فى جوهره الا اضطهاد ألمان لألمان، لا يقل معظمهم عنهم فى الآرية والنوردية، وإنما يختلفون فقط فى الديانة. وطريقة الحياة .

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أي دعوى قرابة دم بين العرب واليهود : قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة وإنما تاريخيا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من الأصول العليا التى تفرعت عنها العربية ، وقد يكون من الصحيح ، بل إنه الصحيح بالفعل ، أن اسماعيل أبا العرب وإسحق أبا اليهود أخوة غير اشقاء وكلاهما ابنا إبراهيم - ولكن فى البداية فقط تصدق هذه الأخوة على نسليهما، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما فى دماء غربية ووصل الذوبان إلى حد الإحلال حتى أصبحنا ازاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة بإسحق فضلا عن اسماعيل. ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوروبا والعالم الجديد اقارب العرب جنسيا أكثر من قرابة الأوروبيين والأمريكيين للعرب ! ولغير هذا - حتى لو قال به ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين إلى فيصل آل سعود ليس إلا من قبيل او هام العوام بل جهالات الملوك ؛ إن اليهود اليوم إنما هم اقارب الأوروبيين والأمريكيين ، بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة، لحما ودماء، وإن اختلف الدين ومن هنا فإن اليهود فى أوروبا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين. أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء فى منفى ودخلاء بلا جذور فذاك فى بيت العرب وحده، فى فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم إلا أن يكون استعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز . وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ انثروبولوجيا وغير انثروبولوجى وانطلاقا من هذا يسقط كذلك أي ادعاء سياسى للصهيونية فى "أرض الميعاد" . فبغض النظر عن أن

القانون الدولي يتكفل بشجب وتفجير ادعاءاتهم على أي أساس تاريخي أو ديني ، فإن الأنثروبولوجيا تبدد أي أساس جنسي قد يزعمون في هذا الصدد . فمن ناحية ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة ، بل هم مجرد طائفة دينية تتألف من اخلاط من كل الشعوب والقوميات والأمم والأجناس . ومن ناحية أخرى فلا علاقة لهم

جنسيا أو انثروبولوجيا بفلسطين ، وهم أجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الأوروبيون أو الأمريكيون بالنسبة إليها . وهم حين يعتصبونها ليخلقوا منها إسرائيل الصهيونية ، فليست هذه عودة الابن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان ، وإنما هي غزو الأجنبي الغريب بالاثم والعدوان وتداعيا وانطلاقا من هذا الانتهاء الأخير ، ينبغى ايضا وفي النهاية ان نرفع نغمة حذر أو تحذير حول قضية ليست هي القضية الفلسطينية ولكنها تشبهها أو بالأحرى تشبه بها ، ونعنى بذلك ما يسمى دعوة "الصهيونية السوداء" . فالأخوة الأفريقيون فى صحوة نهضتهم الحديثة قد وجدوا - كارث من عصر الرقيق - قطاعا منهم خارج أفريقيا فى العالم الجديد يعيش فى أدنى السلم الاجتماعى وتحت ضغوط التفرقة العنصرية الضارية . ومن ثم نادى بعضهم جارفى والجارفية Gurvey بالعودة إلى أفريقيا الأم كحل لمشكلتهم فى أمريكا وبغض النظر هنا عما لاقته الدعوة عمليا وفكريا من فشل أو معارضة ، فقد كان أثيرا لدى أصحابها تشبيه الموقف بموقف الصهيونية فجعلوا تهجير الرقيق الأفريقي إلى العالم الجديد هو الخروج الأسود Exodus Black والشتات الأفريقي A.Diaspora " وجعلوا أفريقيا الأم هي "أرض الميعاد" و " الوطن القومى " ورويا العودة هي "الصهيونية السوداء" والذى يعيننا . هاهنا ليس الحكم على الدعوة أولها ، وإنما ان ننبه اصدقاءنا الأفريقيين برفق الى خطورة وخطأ التشبيه . فإذا كان زواج أمريكا هم فعلا وحقا من سلالة أفريقيا ، فإن الأغلبية الساحقة من يهود عالم اليوم ليسوا من بنى إسرائيل أو سلالة فلسطين فى شىء . وإذا كان لزواج أمريكا نظريا حق تاريخي وجنسي فى العودة إلى أفريقيا ، فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتا بالنسبة إلى فلسطين . ومن ثم فلا مجال ولا وجه للتشبيه بالصهيونية . بل إنه لتشبيه يسيئ الى فكرة العودة الأفريقية أكثر مما يفيدها . والصهيونية من جانبها تتلقف هذا التشبيه لتتقرب به إلى زواج الولايات المتحدة والعالم الجديد وتستدر عطفهم المخدوع على حركتهم العادية الغاصبة . إنه إذن تشبيه غير موفق ، وهو غير صحيح إلى ذلك وقبل ذلك ، ومن الخير لأصدقائنا الأفريقيين وخير قضيتهم وقضيتنا معا ان يسقطوه والفكرة الخاطئة التي تكمن خلفه .

ملحق لتعديث كتاب د . جمال حمدان

تتسم كتابات الدكتور جمال حمدان بعمقها الفكرى وأطروحاتها ذات المقدرة التوليدية العالية.. ولذا فقيمتها الفكرية والمنهجية تظل باقية، وان تغيرت بعض الحقائق والمعلومات. إذ تظل نماذجه التحليلية التفسيرية التصنيفية هى القيمة الأساسية التي تركها لنا وهى التي نتعلم منها كيف نفكر ونفسر ونصنف ومع هذا من المفيد لقارىء هذا الكتاب المرجع أن يعرف الصورة العامة لأعداد اليهود فى العالم ومسار هجراتهم حتى عام ١٩٩٥، وهكذا مايحاول أن يزوده هذا الملحق به ولنلاحظ انه رغم تحديث الأرقام فإن

النموذج التصنيفى العام لم يتغير والذى ينطلق من رؤية الجماعات اليهودية باعتبارها جماعات بشرية يسرى عليها مايسرى على غيرها من قوانين، أي أنها لاتشكل شعبا مختارا أو عصابة إجرامية .

الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم وبعض المعالم السكانية في الوقت الحاضر ١٩٩٢

يقدر عدد سكان العالم من اليهود طبقا لإحصاءات عام ١٩٨٧ بنحو ١٣ مليونا «١٢.٠٩٣٤.٠٦٠.٠» وصل إلى ٨.٠٠.١٢.٠٩١٣ عام ١٩٩٢ «حسبما ورد في الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى لعام ١٩٩٤». وهو يقل قليلا عن عددهم فى عام ١٩٨٢، والبالغ ٦٠.١٢.٠٩٨٨ أو عددهم فى عام ١٩٨٤ 12.962.300 «وهو ما يدل على أن يهود العالم قد وصلوا إلى نقطة الصفر فى النمو» وقد تناقص هذا عددهم فى عام ١٩٦٧ حيث كان ٥٠٠.٨3٧.١٣ أي أن عدد اليهود نقص بنحو المليون فى الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعى، والجماعات اليهودية موزعة فى الوقت الحاضر من الناحية الجغرافية فى كل أرجاء العالم على النحو التالى

١.٩٢٤.٢٠٠	أوروبا «بما فى ذلك روسيا الآسيوية والبلقان وتركيا»
٤.٣٧٨.٦٠٠	آسيا «فلسطين المحتلة أساسا»
١.٦.٧٠٠	أفريقيا (جنوب أفريقيا أساسا)
٦.٤٠٩.٧٠٠	أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية «الولايات المتحدة أساسا»
٩٤.٦٠٠	أستراليا ونيوزيلندا
١٢.٩١٣.٨٠٠	المجموع

وأكبر توسع جماعات يهودية هي

الدولة	نسبتهم الى يهود العالم	عدد أعضاء الجماعة اليهودية
الولايات المتحدة	٤٣.٥٪	٥.٦٢٠.٠٠٠
إسرائيل	٢٢.٨٪	٤.٢٤٢.٥٠٠
فرنسا	٤.١٪	٥٣٠.٠٠٠
روسيا	٣.٢٪	٤٦٥.٥٠٠
كندا	٢.٨٪	٣٥٦.٠٠٠
بريطانيا	٢.٣٪	٢٩٨.٠٠٠
أوكرانيا	٢.١٪	٢٧٦.٠٠٠
الأرجنتين	١.٦٪	٢١١.٠٠٠
جنوب أفريقيا	٠.٨٪	١٠٠.٠٠٠

وإذا نظرنا إلى توزع أعضاء الجماعات اليهودية من منظور التشكيلات الحضارية والسياسية، فإن الصورة سوف تختلف تماما، فلو استبعدنا سكان المستوطن الصهيوني، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون أساسا في أمريكا الشمالية حيث توجد أغليبيتهم الساحقة التي تبلغ «٤٦.٢٤ %» وفي أوروبا الغربية حيث تبلغ ١٤.٩ % وروسيا وأوكرانيا حيث نسبتهم 5.3 % أي أن ٦٩.٨ % من يهود العالم باستثناء فلسطين المحتلة يوجدون في أمريكا الشمالية وأوروبا، ويعيش معظمهم في الوقت الحالى في البلدان الناطقة بالإنجليزية «الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا» ولذا فإنه يمكننا أن نقول: إن اللغة التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية هي الإنجليزية وليس العبرية أو اليديشية.. ومن الملاحظ أن الجماعات اليهودية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي وأوروبا أخذة في الذوبان وأن عددهم في أمريكا اللاتينية أخذ في التناقص السريع.. ولذا يمكننا التنبؤ بأن يهود العالم أو ما يقال له «الشعب اليهودي» سيصبح جزءا لا يتجزأ من الشعب الأمريكى بعد أن كان جزءا لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني الغربى ومن شعوب شرق أوروبا ونلاحظ في الجدول السابق الذى يبين أكبر تسع جماعات يهودية في العالم أن ٩٣.٠٢ % من يهود العالم يعيشون في تسعة مراكز رئيسية بما في ذلك الدولة الصهيونية، وأن 76.3 % يعيشون في دولتين اثنتين «الولايات المتحدة وإسرائيل» ونلاحظ أن البلاد التي يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية تتمتع بمستوى معيشى مرتفع ودخول مرتفعة، كما أنها تنتمى إلى ما يمكن تسميته بالتشكيل العرقى الأبيض، ففي الأرجنتين، حيث توجد أعلى نسبة من البيض في أمريكا اللاتينية توجد أيضا أعلى نسبة من اليهود وهناك عنصر آخر يرتبط بالعنصر السابق وهو أن نسبة ١٥ % من يهود العالم توجد في أوروبا، وتوجد الأغلبية العظمى في دول

استيطانية : الولايات المتحدة وكندا اللتان تضمان 5.976.000.46.27 % من يهود العالم وإسرائيل التي تضم 4.242.500.32.85 % من يهود العالم. وجنوب أفريقيا التي تضم 8.100.000 % والبرازيل والأرجنتين وبقية دول أمريكا اللاتينية 382.000.2.9 % ويمكن أن نضيف كذلك أستراليا ونيوزيلندا التي تضم 94.600.7 % أي أن الجماعات اليهودية مرتبطة بأوروبا وبتجربتها الاستيطانية جغرافيا وتاريخيا، إذ يوجد في هذه البلاد ٩١ % من يهود العالم، وكذلك فإن الدياسبورا اليهودية، أي انتشار أعضاء الجماعات في أنحاء العالم ليست، انتشارا عشوائيا، وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعماري الغربى خصوصا في جانبه الاستيطاني، وبالتالي فإن إسرائيل لا تشكل استثناء من القاعدة بل هي جزء من نمط غربى عالمى، وارتفاع الدخول ليس منفصلا تماما عن العنصر الاستيطاني إذ أن التجربة الغربية الاستيطانية كانت تهدف أساسا إلى حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الغازية، وكانت إحدى أهم المشاكل هي الفائض البشرى. وقد كان المجتمع الغربى ينظر إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية نافعة فتحركوا أو تم تحريكهم داخل هذا الاطار. وفيما يلي توزع أعضاء

الجماعات اليهودية في العالم فى احصائيات 1992

١ - الشمالية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
كندا	٢٧,٧٥٥,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠	١٢.٨
الولايات المتحدة	٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠	٥,٦٢٠,٠٠٠	٢١.٨
المجموع	٢٨٥,٥٩٥,٠٠٠	٥,٩٧٦,٠٠٠	٢٠.٩

٢ - الوسطى

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
لانتليز الهولندية	١٧٥,٠٠٠	٤٠٠	٢.٢
بنما	٢,٥٦٢,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢.٠
بورتوريكو	٣,٦٢٦,٠٠٠	١,٥٠٠	٠.٤
جامايكا	٢,٤٩٥,٠٠٠	٣٠٠	٠.١
جزر البهاما	٢٦٨,٠٠٠	٣٠٠	١.١
جواتيمالا	١٠,٠٢٩,٠٠٠	٨٠٠	٠.١
الدومينيكان	٧,٦٢١,٠٠٠	١٠٠	-
فيرجن ايلاند	١٠٧,٠٠٠	٣٠٠	٢.٨
كوبا	١٠,٧٠٩,٠٠٠	٧٠٠	٠.١
كوستاريكا	٢,٢٧٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠.٦
المكسيك	٨٩,٩٩٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٠.٤
بلاد أخرى	٢٥,٢٣٠,٠٠٠	٣٠٠	-
المجموع	١٥٦,٢٨٩,٠٠٠	٥١,٧٠٠	٠.٣

٣ - الجنوبية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
الارجنتين	٣٣.٤٨٧.٠٠٠	٢١١.٠٠٠	٦.٣
إكوادور	١١.٣١٠.٠٠٠	٩٠٠	٠.١
أوروغواي	٣.١٤٩.٠٠٠	٢٣.٨٠٠	٧.٦
باراجواي	٤.٦٤٣.٠٠٠	٩٠٠	٠.٢
البرازيل	١٥٦.٥٧٨.٠٠٠	١٠٠.٠٠٠	٠.٦
بوليفيا	٧.٧٠٥.٠٠٠	٧٠٠	٠.١
بيرو	٢٢.٩١٢.٠٠٠	٣.٠٠٠	٠.١
سورينام	٤٤٦.٠٠٠	٢٠٠	٠.٤
شيلي	١٣.٨١٢.٠٠٠	١٥.٠٠٠	١.١
فنزويلا	٢٠.٦١٨.٠٠٠	٢٠.٠٠٠	١.٠
كولومبيا	٢٢.٩٨٥.٠٠٠	٦.٥٠٠	٠.٢
المجموع	٣٠٨.٦٤٧.٠٠٠	٢٨٢.٠٠٠	١.٢
المجموع الكلي للأمريكتين	٧٥٠.٦٣١.٠٠٠	٦.٤٠٩.٧٠٠	٨.٥٣

1

استراليا ونيوزيلاندا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
استراليا	١٧.٨٤٣.٠٠٠	٩٠.٠٠٠	٥.٠
نيوزيلاندا	٣.٤٨٧.٠٠٠	٤.٥٠٠	١.٢
بلاد أخرى	٦.٦١٧.٠٠٠	١٠٠	-
المجموع	٢٧.٩٤٧.٠٠٠	٩٤.٦٠٠	٣.٤

آسيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسرائيل	٥.١٩٥.٩٠٠	٤.٢٤٢.٥٠٠	٨١٦.٥

الدول الآسيوية في الاتحاد السوفيتي «سابقا»

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
أذربيجان	٧.٣٠٠.٠٠٠	٢١.٠٠٠	٢.٩
أرمينيا	٣.٥٠٠.٠٠٠	٣.٠٠٠	٠.١
أوزبكستان	٢١.٦٠٠.٠٠٠	٤٥.٢٠٠	٢.١
تركمانيا	٤.٠٠٠.٠٠٠	١.٩٠٠	٠.٥
جورجيا	٥.٥٠٠.٠٠٠	١٨.٠٠	٣.٢
طاجيكستان	٥.٧٠٠.٠٠٠	٥.٠٠٠	٠.٩
كازخستان	١٧.٢٠٠.٠٠٠	١٤.٥٠٠	٠.٨
قرغيزيا	٤.٦٠٠.٠٠٠	٣.٧٠٠	٠.٨
المجموع	٦٩.٣٠٠.٠٠٠	١٠٩.٦٠٠	١.٦

بلاد آسيوية أخرى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إيران	٦٣.١٨٠.٠٠٠	١٦.٠٠٠	٠.٢
تايلاند	٥٦.٨٦٨.٠٠٠	٢.٠٠	-
سنغافورة	٢.٧٩٨.٠٠٠	٣.٠٠	٠.١
سوريا	١٣.٧٦٢.٠٠٠	١.٢.٠٠	٠.١
العراق	١٩.٩١٨.٠٠٠	٢.٠٠	-
الفلبين	٦٦.٥٤٣.٠٠٠	١.٠٠	-
كوريا الجنوبية	٤٤.٥٠٨.٠٠٠	١.٠٠	-
الهند	٨٩٦.٥٦٧.٠٠٠	٤.٥٠٠	-
هونغ كونج	٥.٨٤٥.٠٠٠	١.٠٠٠	٠.٢
اليابان	١٢٤.٩٥٩.٠٠٠	١.٠٠٠	-
اليمن	١٢.٩٧٧.٠٠٠	١.٦.٠٠	٠.١
بلاد أخرى	١.٩١٨.٥٠٦.١٠٠	٣.٠٠	-
المجموع	٣.٢٢٦.٤٣١.١٠٠	٢٦.٥٠٠	-
المجموع الكلي للبلاد الآسيوية	٣.٣٠٠.٩٢٧.٠٠٠	٤.٣٧٨.٦٠٠	١.٣

أفريقيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إثيوبيا	٥٤.٦٢٨.٠٠٠	١.٥٠٠	-
تونس	٨.٥٧٩.٠٠٠	٢.٠٠٠	٠,٢
الجزائر	١٩.٥٩٠.٠٠٠	٣٠٠	-
جنوب أفريقيا	٤٠.٧٧٤.٠٠٠	١٠٠.٠٠٠	٢,٥
زائير	٤١.١٦٦.٠٠٠	٤٠٠	-
زامبيا	٨.٨٨٥.٠٠٠	٣٠٠	-
زيمبابوي	١٠.٨٩٨.٠٠٠	١.٠٠٠	٠,١
مصر	٥٦.٠٦٠.٠٠٠	٢٠٠	-
بلاد أخرى	٤٢٧.٩٩٠.٠٠٠	٢٠٠	-
المجموع	٦٦.٨٥٧.٠٠٠	١٠٦.٧٠٠	١,٦

أوروبا

الجماعة الأوروبية:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسبانيا	٣٩.١٥٣.٠٠٠	١٢.٠٠٠	٠.٣
ألمانيا	٨٠.٦٠٦.٠٠٠	٥٠.٠٠٠	٠.٦
أيرلندا	٣.٤٨١.٠٠٠	١.٨٠٠	٠.٥
إيطاليا	٥٧.٨٢٦.٠٠٠	٣١.٠٠٠	٠.٥
البرتغال	٩.٨٧٠.٠٠٠	٣.٠٠	-
بلجيكا	١٠.٠١٠.٠٠٠	٣١.٨٠٠	٣.٢
الدنمارك	٥.١٦٩.٠٠٠	٦.٤٠٠	١.٢
فرنسا	٥٧.٢٧٩.٠٠٠	٥٣٠.٠٠٠	٩.٢
لوكسمبورج	٢٨٠.٠٠٠	٦.٠٠	١.٦
المملكة المتحدة	٥٨.٠٣٩.٠٠٠	٢٩٨.٠٠٠	٥.١
هولندا	١٥.٢٧٠.٠٠٠	٢٥.٦٠٠	١.٧
اليونان	١٠.٢٠٨.٠٠٠	٤.٨٠٠	٠.٥
المجموع	٣٤٧.٢٩١.٠٠٠	٩٩٢.٣٠٠	٢.٩

باقي دول أوروبا الغربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
جبل طارق	٣١.٠٠٠	٦.٠٠	١٩.٤
السويد	٨.٦٩٢.٠٠٠	١٥.٠٠٠	١.٧
سويسرا	٦.٨٦٢.٠٠٠	١٩.٠٠٠	٢.٨
فنلندا	٥.٠٢٠.٠٠٠	١.٣٠٠	٠.٣
النرويج	٤.٣١٠.٠٠٠	١.٠٠٠	٠.٢
النمسا	٧.٨٠٥.٠٠٠	٧.٠٠٠	٠.٩
بلاد أخرى	٧٧١.٠٠٠	١٠.٠٠٠	٠.١
المجموع	٣٣.٤٩١.٠٠٠	٤٤.٠٠٠	١.٣

الدول الأوربية في الاتحاد السوفيتي «سابقا» :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
استونيا	١,٦٠٠,٠٠٠	٢,٤٠٠	٢ ١
أوكرانيا	٥١,٩٠٠,٠٠٠	٢٧٦,٠٠٠	٥ ٢
روسيا	١٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٢ ٨
روسيا البيضاء	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	٤ ٥
لاتفيا	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٢,٥٠٠	٥ ٢
ليتوانيا	٢,٨٠٠,٠٠٠	٦,٥٠٠	١ ٧
مولدافيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٩,٤٠٠	٤ ٤
المجموع	٢٢٣,٦٠٠,٠٠٠	٧٧٩,٨٠٠	٣ ٥

أوروبا الشرقية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
بلغاريا	٨,٩٢٦,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠,٢
البوسنة والهرسك	٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	٠,١
بولندا	٢٨,٥١٨,٠٠٠	٣,٦٠٠,٠٠٠	٠,١
تركيا «بما في ذلك المناطق الآسيوية»	٥٩,٥٧٧,٠٠٠	١٩,٥٠٠,٠٠٠	٠,٣
تشيك	١٠,٢٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠,٠٠٠	٠,٤
رومانيا	٢٣,٣٧٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠,٠٠٠	٠,٧
سلوفاكيا	٥,٣٠٠,٠٠٠	٣٨٠,٠٠٠	٠,٧
سلوفينيا	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	-
كرواتيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٤٠,٠٠٠	٠,٣
المجر	١٠,٤٩٢,٠٠٠	٥٦,٠٠٠,٠٠٠	٥,٣
يوغوسلافيا	٩,٨٠٠,٠٠٠	١,٧٠٠,٠٠٠	٠,٢
المجموع	١٧٦,٦٩١,٠٠٠	١٠٨,١٠٠,٠٠٠	٠,٦
المجموع الكلي لأوروبا	٧٨١,١٧٢,٠٠٠	١,٩٢٤,٢٠٠,٠٠٠	٢,٥

ويلاحظ أنه يوجد دولتان اثنتان «الولايات المتحدة وإسرائيل» تضمنان الغالبية الساحقة لليهود العالم «٧٥%» ولا يزيد عدد اليهود عن نصف مليون إلا في دولة واحدة «فرنسا» وينقص عن النصف مليون في دولة أخرى «روسيا» وتوجد دولتان «جنوب أفريقيا والبرازيل» يزيد عدد اليهود في كل منهما على مائة ألف وباستثناء المجر وفيها ٥٦ ألفا والمكسيك ويوجد فيها ٤٠ ألفا لا توجد دولة واحدة أخرى يزيد فيها عدد اليهود على ٢٥ ألفا ففي بلجيكا يوجد ٨٠٠.٣١ وفي إيطاليا ٣١ ألف وفي أوروبا ٨٠٠.٢٣ وفي رومانيا ١٦.٠٠٠ ويلاحظ أن جميع الدول السابقة تنتمي أيضا إلى التشكيل العرقي الأبيض أو التشكيل الاستيطاني ذي الجذور الغربية.

البيضاء والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لا يوجدون في العالم بأسره وإنما ضمن تشكيل محدد، وأن وجودهم في بعض الدول أقرب إلى الغياب ولا يمكن أخذه في الاعتبار من الناحية الإحصائية، كما هو الشأن مع معظم الاقليات الدينية والاثنية في العالم. فلا يمكن أن

نتحدث عن الوجود اليهودي في الهند حيث لا يوجد بها إلا نحو ٥٠٠.٤ يهودي ، أو الوجود اليهودي في اليونان حيث يوجد ٨٠٠.٤ يهودي، أو بولندا وفيها ٣٦٠٠ يهودي، أو النرويج التي فيها ألف يهودي ، أو زاشر التي فيها ٤٠٠ يهودي أو الفلبين وفيها ١٠٠ يهودي أو بورما حيث يوجد عشرون يهوديا وحسب .

وتشكل الجماعات اليهودية قلة سكانية بالنسبة إلى سكان العالم، وهم كذلك أقلية صغيرة قياسا إلى حجم السكان في الدول التي يوجدون فيها. فأكبر تجمع يهودي في العالم في الولايات المتحدة لا يشكل سوى ١٨.٢% من مجموع السكان البالغ عددهم 257.840.000 حسب إحصاءات عا ١٩٩٢.. وثاني تجمع يهودي في العالم كان يتركز في الاتحاد السوفييتي «سابقا» وهو بدوره لا يشكل سوى 1.7% من مجموع السكان البالغ عددهم 5١٦.٢٦٧. أما في كندا، فإن النسبة هي ١.٢٨% من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦٠٧٥٥.٠٠٠. وتقل النسبة في البلاد الأوروبية الأخرى، أما في إنجلترا فإنها ٠.٥١% من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٨٠٣٩ وفي روسيا ٠.٢٨% وفي أوكرانيا ٠.٥٢% ولا يشكل اليهود أغلبية إلا في إسرائيل وحدها، ومع هذا فإنهم يحسون باحساس الأقلية نظرا لوجودهم في صورة مجتمع استيطاني معزل داخل الكثافة السكانية العربية ولخوفهم الدائم من العرب الموجودين في فلسطين، وبعد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة.. وتكاثر العرب في مقابل تناقص الهجرة ، وتزايد النزوح بين المستوطنين، وعقم الأنثى اليهودية في إسرائيل، فإن العرب سيصبحون هم الأغلبية العديدة لا النفسية وحسب، وهذا ما يسمى «مشكلة إسرائيل السكانية» .

ومن الظواهر التي تستحق الإشارة، تركيز اليهود في عواصم والمدن الكبرى، فالواقع أن أكثر من نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية «٢٠٠ ألف» يوجدون في بوينس آيريس ، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا «٦٣ ألفا» يوجدون في جوهانسبرج، وأكثر من نصف يهود فرنسا «٢٠ ألفا» في باريس، وأكثر من نصف يهود إنجلترا «٢٠٠ ألف» يوجدون في منطقة لندن الكبرى، وأكثر من نصف يهود هولندا «١٥ ألفا» في أمستردام، وأكثر من نصف يهود كندا في مونتريال.. ١00 ألف» وتورنتو «١٧٥ ألفا» وثلاث يهود روسيا «٢٠٠ ألف» يوجد في موسكو. أما في الولايات المتحدة فهناك خمس مدن تضم أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة إذ تضم نيويورك «الكبرى» ٤٥٠ ألفا ولوس أنجلوس ألفا ٤٩٠ ألفا وفيلادلفيا 254 ألفا وشيكاغو «الكبرى» 3٤٨٠٠٠ وبوسطن ٢٠٨.٠٠٠ وواشنطن «الكبرى» ١٦٥ ألفا وميامي " ١٩٩ ألفا والواقع أن توزعهم على كل هذه المدن بدلا من تركيزهم في العاصمة هو انعكاس للتركيبية الفيدرالية للولايات المتحدة. وإذا كان نصف الجماعات اليهودية

يتركز في كثير من البلاد في العاصمة، فإن النصف الثاني يوجد موزعا على مدن كبرى أخرى، أي أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهودية توجد في مراكز حضرية. وهذا أمر متوقع باعتبار أنهم عملوا كجماعة وظيفية وسيطة في الحضارة الغربية ومهاجرون إلى البلاد التي يوجدون فيها، والمهاجرون

يتركزون عادة في المدن حيث توجد فرص أكبر للعمل، وحيث توجد مراكز التجارة والمال ولم يكن الحال مختلفا في العالم العربي، فقد تركزت أغلبية يهود لبنان في بيروت كما تركز يهود مصر في القاهرة بحى المعادى وحى الظاهر وتتركز المعابد اليهودية بشكل ملحوظ في العواصم، فمثلا يوجد في القاهرة والاسكندرية عدة معابد، ويقع أحد معابد القاهرة في شارع عدلى على مقربة من البنوك ومراكز التجارة. كما يوجد معبد يهودى في الاسكندرية في شارع النبی دانیال على مقربة أيضا من بنوك الاسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية ومن المعروف أن ١٨ من العاملين بالبورصة في مصر كانوا من أعضاء الجماعة اليهودية .

وفى تصورنا أن هذا الوضع هو نتيجة للاستعمار الغربى وللهجرة الاشكنازية إلى العالم العربى فى أواخر القرن الماضى والتى سمت معظم الجماعات اليهودية العربية فى بلاد المتوسط «مصر والجزائر والمغرب ولبنان وسوريا» بميسمها بحيث تحول أعضاء الجماعات إلى جماعات وسيطة للاستعمار الغربى.. كما يلاحظ «مثلا» أن يهود اليمن الذين ظلوا بمنأى عن الهجرة الاشكنازية ، ظلوا محتفظين ببنائهم الطبقي القبلى وبوجودهم فى الجبال. أما فى العراق فإن يهود كردستان الذين ظلوا بمنأى عن هذه التحولات لم يستقروا فى المدن على خلاف بقية أعضاء الجماعة الذين تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وتركزوا فى العاصمة وفى أعمال التجارة والمال بالذات ولم يشذ سكان التجمع الاستيطانى الصهيونى عن هذا الاتجاه. ففي إسرائيل يتكدس ٧٥ من المواطنين فى المدن .. ويلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لايزال آخذا فى التناقص وهو ما يطلق عليه ظاهرة «موت الشعب اليهودى» .

وحينما وصلت الإحصائيات بتعداد اليهود فى العالم عام 1995 وجدنا أن الصورة العامة لم تختلف كثيرا عنها عام ١٩٩٢ .

وفيما يلي بعض التغيرات الأساسية

الدولة	عام ١٩٩٢	عام ١٩٩٥
الولايات المتحدة	٥,٦٢٠,٠٠٠	٥,٨٠٠,٠٠٠
إسرائيل	٤,٢٤٢,٥٠٠	٤,٤٢٠,٠٠٠
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
روسيا	٤١٥,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
أوكرانيا	٢٧٦,٠٠٠	٤٤٦,٠٠٠
الارجنتين	٢١١,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠
جنوب أفريقيا	١٠٠,٠٠٠	١١٤,٠٠٠
المجر	٥٦,٠٠٠	٨٠,٠٠٠
مولدافيا	١٩,٤٠٠	٤٠,٠٠٠
روسيا البيضاء	٤٦,٠٠٠	٣٤,٠٠٠
أندوجواي	٢٣,٨٠٠	٢٠,٠٠٠
إيران	١٦,٠٠٠	٢٥,٠٠٠
أذربيجان	١٢,٠٠٠	٢٥,٠٠٠

ويمكن القول أن التغيرات فى الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لايعتد بها، ولكن الزيادات فى البلاد الأخرى تحتاج إلى وقفة، فزيادة ٧٠ ألفا فى فرنسا «أى بنسبة ١٣.٢ %» و ٤٠ ألفا فى الأرجنتين «بنسبة ٤٨.١٨ %» و ٢٣ ألفا فى المجر «بنسبة ٤٢.9 %» و ١٤ ألفا فى جنوب أفريقيا «بنسبة ١٤ %» وتسعة آلاف فى إيران «بنسبة ٥٦ %» ليس لها سبب واضح ، فالاتجاه العام فى هذه البلاد فى السنين السابقة كان نحو النقصان لا الزيادة ولعل الزيادات هنا راجعة لاختلاف النماذج الإحصائية بين المصدر الذى استخدمه الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى «وهو من إصدار البعثة اليهودية الأمريكية» ومصدر تعداد عام ١٩٩٥ وهو تقرير أصدره المؤتمر اليهودى العالمى .

ولاندري هل ينطبق نفس التفسير على الزيادة الملحوظة فى دول الاتحاد السوفييتى سابقا «دول الكومنولث المستقلة وغيرها من الدول» اذ نلاحظ أن يهود روسيا زادوا زيادة كبيرة ١٨٩ ألفا «حوالى ٤٤ %» وزاد يهود أوكرانيا ١٧٠ ألفا «حوالى ٦١ %» وزاد يهود مولدوفا ٢١ ألفا «أكثر من ١٠٦ %» بينما زاد يهود روسيا البيضاء ١٢ ألفا «أى بنسبة ٢٦ %» وهناك احتمال أن تكون قد بدأت حركة عودة من الدولة الصهيونية كما أن أعدادا كبيرة من يهود لاتفيا واستونيا وليتوانيا والجمهوريات الإسلامية السابقة وطنوا فيها باعتبارهم عنصرًا روسيا استيطانيا، ولعل أعداداً منهم بدأت هى الأخرى فى العودة - وهناك بطبيعة الحال مشكلة من هو اليهودى ومن يضم فى التعداد ومن يستبعد وعلى كل فإن هذه القضايا ليست جوهرية ولا تغير من الأنماط العامة التى درسناها .

هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث تغير اتجاه هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع بداية عصر النهضة فى أوربا لثلاثة أسباب أساسية

١ - شهد عصر النهضة البدايات الحقيقية لثلاث انقلاب التجارى الرأسمالى بما تبعه من اكتشافات جغرافية ومشاريع استعمارية غربية، اسبانية وبرتغالية ثم هولندية وانجليزية. وكانت أسبانيا والبرتغال قد طردتا اليهود من أراضيها أما هولندا وانجلترا فقد فتحتا أبوابهما لهجرة اليهود نظرا لحاجتهما إلى أيد عاملة ورؤوس أموال وخبرات تجارية، ثم تبعتهما فرنسا.. وقد أدى هذا الوضع إلى تدفق المهاجرين اليهود إلى هذه البلاد وإلى مستعمراتها فيما بعد

٢ - كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الجمود التى أدت إلى سقوطها فى نهاية الأمر، ولم تعد قادرة على استيعاب المزيد من اليهود

3- وفى تلك المرحلة، كان معظم يهود أوربا مركزين فى بولندا التى شهدت ثورة الزعيم الشعبى الأوكرانى بوجدان شميلنكى عام ١٦٤٨ والذى قاد ثورة الفلاحين الأوكرانيين ضد الاحتلال البولندى وضد النبلاء البولنديين " النشلاختا " المستفيدين من هذا الاحتلال وضد عمال النبلاء وممثليهم من يهود الأرندا الذين كانوا يقومون بجمع الضرائب وتوقيع العقوبات على الفلاحين. وقد هزت هذه الثورة جذور الدولة البولندية على وجه الخصوص ثم تبع ذلك غزو السويد وروسيا لها وقد أدى تزامن هذه الأحداث «طرد اليهود السفارد من شبه جزيرة أيبيريا، ثم اهتزاز الأساس الاقتصادى والسياسى لليهود

الأشكناز فى بولندا مع فتح أبواب الهجرة إلى أوروبا الغربية ، ودخول الدولة العثمانية فى طور الجمود» إلى تغيير مسار هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى أوروبا، وظهور النمط الحديث أي هجرة اليهود من البلاد المتخلفة فى شرق أوروبا إلى البلاد المتقدمة فى وسطها وغربها وإلى العالم الجديد. والهجرة اليهودية فى العصر الحديث هى أساسا جزء من حركة الاستعمار الاستيطانى التى بدأت فى القرن السادس عشر، خصوصا التشكيل

الآنجلوساكسونى «بعد بداية قصيرة مع الاستعمار الاسبانى ثم الهولندى» وما الهجرة الصهيونية إلا تعبير عن هذا النمط العام ومع هذا ظلت الولايات المتحدة هى نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البدايه حتى الوقت الراهن للأسباب التالية :

1- تشكل الولايات المتحدة أهم وأنجح تجربة استيطانية غربية وقد اجتذبت ثم استوعبت أعدادا كبيرة من المهاجرين من أوروبا بلغت أكثر من ٨٠ %

٢ - الولايات المتحدة دولة علمانية لم تعرف أية تقاليد أو حتى أية رموز دينية إلا لفترة وجيزة للغاية من تاريخها، كما أنها نجحت فى إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصهر المهاجرين و«أمركتهم» وفتحت أمامهم فرصة الانتماء الثقافى الكامل لوطنهم الجديد مما زاد من جاذبيتها وذلك على عكس أمريكا اللاتينية التى احتفظت بكاثوليكيته وياتالى استبعدت البروتستانت واليهود 3 - كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية مالية تعمل بالتجارة والمال، وبالتالي لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين، والمجتمع الأمريكى هو مجتمع الاقتصاد الحر الذى يشكل القطاع التجارى والمالى أكبر قطاعاته والذى سادت فيه القيم التجارية الموضوعية ومن ثم فهو مجتمع له جاذبية خاصة بالنسبة إلى المهاجر اليهودى .

وقد تنبأ المؤرخ الروسى اليهودى دبنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون إلى الولايات المتحدة، وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها ويمكن القول بقدر من التبسيط غير المخل أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور حول قطبين أساسيين هما شرق أوروبا «روسيا - بولندا» كقوة طاردة وكمصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كقوة جاذبة، وقد كان النمط الأساسى القديم للهجرة اليهودية هو تحرك أعضاء الجماعات داخل أطر الإمبراطوريات الكبرى «الفارسية أو الرومانية أو الإسلامية» أما فى العصر

الحديث فقد كانت هناك إمبراطوريتان أو قوتان عظيمتان تحددان من خلال سياستهما حركة هجرة أعضاء الجماعة اليهودية ، وقد تطور الأمر بعض الشيء بعد ذلك فى منتصف القرن العشرين . ولكن هناك مصادر أخرى ثانوية طاردة للمادة البشرية مثل أوروبا الشرقية أو أمريكا اللاتينية أو جنوب أفريقيا أو بقايا يهود الشرق والعالم الإسلامى، كما أن هناك مناطق جذب ثانوية أخرى مثل كندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوروبا إلا أن النمط الأساسى الذى أشرنا إليه ظل سائدا وتمثل إسرائيل نقلة مبهمة فهى مصدر طرد حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون، كما أنها مصدر جذب

ليهود البلاد العربية والشرق. حيث إنها تحقق حراكا اجتماعيا كما تمثل محطة انتقال لهؤلاء، اليهود الذين لايمكنهم الوصول إلى الولايات المتحدة أو أولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها ويمكن تقسيم هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث إلى المراحل التالية.

أ - المرحلة الأولى : ابتداء من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر . وهي مرحلة البدايات الأولى للثورة التجارية الرأسمالية الصناعية في أوروبا ، وهذه هي الفترة التي شهدت توطين السفارد من يهود المارانو في هولندا وفرنسا، وانجلترا، كما شهدت بدايات الهجرة الاستيطانية اليهودية إلى العالم الجديد. وكانت الهجرة تتبع النمط التالي: تهاجر مجموعة صغيرة من السفارد «عادة من كبار الممولين وعائلاتهم» تلحق بهم أعداد ضخمة من الاشكناز، كما حدث في أمستردام بعد استقلالها عن أسبانيا وكما حدث في إنجلترا وفرنسا وبعض مدن ألمانيا، وقد زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في أمستردام من ٢٠٠ سفاردى في عام ١٦٩٠ إلى ٢٤٠٠ سفاردى و ٢١ ألف اشكنازى في عام ١٧٩٥. أما لندن، فقد كان يوجد فيها في عام ١٦٩٥ نحو ٤5٨ سفارديا و 203 من الاشكناز، ومع حلول عام ١٧٢٠ زاد عدد الاشكناز على عدد السفارد وفي عام ١٨٠٠ كان يوجد ألفا سفاردى ، وحسب بين العشر ألف يهودى. ولم يستوطن أي عدد يذكر من اليهود في فلسطين في تلك المرحلة

ب- المرحلة الثانية، من القرن التاسع عشر حتى عام 1880 وهي المرحلة التي وقعت فيها الحرب النابليونية والاضطرابات السياسية التي أعقبتها الأمر الذى تسبب في هجرة بعض الجماعات اليهودية من ألمانيا وبوهيميا والنمسا إلى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها. ولم يزد عدد المهاجرين اليهود إلى خارج القارة الأوروبية على 200.000. ويمكن تفسير ذلك بعدة أسباب من بينها أن الأنفجارية السكانية التي حدثت بين يهود البديشية في شرق أوروبا، والتي أدت إلى تزايد أعدادهم بين عامى ١٨٠٠ و ١٩33 بنحو ستة أضعاف، لم يكن قد ظهر أثرها بعد، كما أنها وصلت إلى ذروتها، بعد عام ١٨٨٠، فضلا عن ذلك كان معظم يهود العالم مركزين في شرق أوروبا وروسيا وبولندا التي كان قد تم ضمها إلى روسيا، ولم تكن معدلات العلمنة والتحديث قد ازدادت بينهم بعد، مما كان يعني أنهم لا يزالون جماعة متماسكة تصعب على أعضائها الحركة، كما كان كثير من اليهود لا يزالون يلعبون دورهم الاقتصادي التقليدى كجماعة وظيفية وحتى عندما تزايدت عمليات التحديث والعلمنة في روسيا، وتركت تلك العملية أثرها على الجماعة اليهودية التي بدأت تفقد شيئا من تماسكها وبدأ يختفى كثير من مؤسساتها التقليدية التى تربط بين الفرد والجماعة مثل الأسرة والدين فإن هذا لم يتسبب في أي هجرة خارج أوروبا إذ لم تكن محاولات التحديث في الإمبراطورية الروسية قد كابدت من التعثر بعد- وقد كان الاقتصاد الروسى قادرا على استيعاب اليهود الذين كانوا يتزايدون ويتركون قراهم وأماكن إقامتهم الأصلية، ولذا، فقد كانت هجرة اليهود داخلية، من المناطق الكثيفة سكانيا، في منطقة الاستيطان إلى روسيا الجديدة على شواطئ البحر الأسود كما هاجرت أعداد صغيرة إلى بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة .

وشهدت هذه المرحلة هجرة يهود المناطق البولندية التي ضمتها ألمانيا «١٧٧٢ - ١٨١٥» وفي بروسيا بالذات، كان يوجد في عام 1837 نحو ٢٦٤.١٤٥ يهودا ٧٠ % منهم حوالي «١٥٢.١٠١» كانوا في المناطق البولندية، أي أن أغلبية يهود بروسيا كانوا مركزين هناك. ولكن مع عام ١٨٧١، تناقص عددهم عن طريق الهجرة إلى ألمانيا ذاتها، وأصبحت نسبة اليهود في المناطق البولندية ٨.٣١ % ثم انخفضت في عام ١٨٩٠ إلى ٨ ٢٤ % وإلى ١٧.4 % في عام ١٩١٠. وقد اتجه هؤلاء اليهود إلى برلين التي

ارتفع عدد اليهود فيها من ٤٧.٤٨٩ في عام ١٨٧١ إلى ١٤١.١٨١ في عام ١٩٢٥، وقد ساهم هذا الارتفاع في تغذية الدعاية العنصرية النازية بشأن تكاثر اليهود والخطر اليهودي ومحاولة سيطرة اليهود على كل شيء

ج- المرحلة الثالثة. من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٩ وهي مرحلة الهجرة الكبرى اليهودية وغير اليهودية، والتي بدأت في عام ١٨٨١ مع تعثر التحديث في روسيا وتزايد العنصرية في كل أوروبا وانتهت في عام ١٩٣٩ بصدور قوانين عام ١٩٢٤، التي حدثت من هجرة يهود شرق أوروبا، ثم بالكساد الاقتصادي وإغلاق أبواب الهجرة من روسيا تماما. ووفقا لإحصائيات الموسوعة اليهودية، بلغ عدد المهاجرين في هذه الفترة أربعة ملايين، في حين يذهب آرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك، فهو يرى أنه في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٢٠ هاجر نحو ٩٧5.000. ٣ فإذا أضفنا إلى ذلك وفقا لليستشني الرق ٥٠٧.٨٤٥ وهو عدد الذين هاجروا من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٩، فإن العدد الكلي يصبح ٨٤٥ ٤٢ 4.

ويجب أن نضيف إلى هذه الهجرة حركة اليهود داخل الامبراطوريات العظمى فى أوربا، الأمر الذى قد يصل بالعدد خمسة ملايين وقد أخذت الحركة داخل الإمبراطورية النمساوية اتجاهاها من الشرق «جاليشيا وبكوفينا وبوزنان» إلى الغرب وحدث نفس الشيء فى ألمانيا، أما فى روسيا فقد اتجهت الهجرة نحو الجنوب إلى أوديسا ومناطق البحر الأسود، وكان عدد اليهود الذين انتقلوا فى هذه الفترة من بلد أوربى إلى آخر هو ٣٥٠ ألفا، ويرى رويين أنهم ٤٩٠ ألفا كما شارك فى حركة الهجرة من القرية إلى المدينة، فزاد عدد يهود فيينا «بلدة تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصسهدونية» على سبيل المثال من ستة آلاف فى عام ١٨٥٧ إلى ٩٩ ألفا فى عام ١٨90 وإلى ١٧٥ ألفا فى عام ١٩١٠، وهى زيادة تمت أساسا عن طريق الهجرة حيث أن معدلات الزيادة الطبيعية كانت أخذة آنذاك فى التناقص وربما يكون الدافع الأكبر وراء الهجرة فى هذه الفترة هو تعثر محاولات التحديث فى روسيا ثم توقفها تقريبا، وهو ما انعكس فى شكل الاضطهاد الروسى القيصرضد جميع الأقليات فى الإمبراطورية. لذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود الإمبراطورية الروسية إلى خارجها بحثا عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعى وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية، وكانت الأغلبية العظمى من المهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية، ويهود روسيا على وجه الخصوص حيث كانوا يشكلون ما بين ٧٠% و ٨٠% من جملة يهود العالم، وقد كان عددهم نحو عشرة ملايين، وهو ما يعنى أن نصفهم تقريبا، أى واحد من كل اثنين، كان فى حالة حركة وهجرة وانتقال فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، وهذه نسبة عالية للغاية ولاشك أنها اسهمت فى تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر، ومع أن نسبة الهجرة بين يهود اليديشية كانت أعلى من نسبتها بين الإيطاليين فإنها كانت أقل من نسبتها بين الأيرلنديين وقد كان عدد الأيرلنديين فى عام ١٨٣٠ ثمانية ملايين يشكلون نصف سكان إنجلترا، وقد هاجر منهم أربعة ملايين بين عامى ١٨٣٠، 1900 وهاجر معظم اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١، إلى عام 1914 خصوصا الأربعة عشر عاما الأخيرة منها. وتذكر الموسوعة اليهودية أن عدد المهاجرين بلغ 2.750.000 فإذا انقصنا من هذا العدد حوالى ٢50 ألفا هاجروا داخل أوربا، وذلك على اعتبار أن عدد المهاجرين فى الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٣٥ هو حوالى ٤٩٠ ألفا، يكون عدد المهاجرين إلى خارج القارة هو ٥50.000.٠٠ بمعدل هجرة سنوية تصل إلى ١٣٥ ألفا وتعد سنة الذروة هى ١٩٠٥ - ١٩٠٦ حيث هاجر ما بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألفا فى ذلك العام وحده. لكن الهجرة توقفت فى أثناء الحرب وعثد فتحها فى عام ١٩٠٧ تدفق السيل مرة أخرى إذ هاجر فى ذلك العام وحده ١٤١ ألفا ثم صدر أول قانون لتحديد الهجرة فى العام التالى، الأمر الذى أدى إلى تغيير الصورة وإذا كانت روسيا هى نقطة الطرد الكبرى فقد كانت الولايات المتحدة نقطة الجذب، الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر، وهى الفترة التى أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدما الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه، وفى هذه الفترة، بدأت الرأسمالية الأمريكية تجربتها الإمبريالية فى أمريكا اللاتينية والفلبين حيث كانت فى حاجة ماسة إلى الأيدى العاملة التى لم يكن من الممكن تجنيدها من خلال الزيادة الطبيعية

وقد استوعبت الولايات المتحدة بنحو ٨٥% من المهاجرين اليهود بل واستوعبت نفس النسبة تقريبا من جملة المهاجرين في العالم. ولاتوجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة إلا ابتداء

من عام ١٨٩٩ وقد هاجر من روسيا في خلال ستة عشر عاما «١٨٩٩ - ١٩٢٤» نحو مليون ونصف المليون يهودي. وفيمايلي جدول بأعداد اليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة من روسيا وغيرها في الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام 19١٤

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٨٩٩	٣٧.٤١٥	١٩٠٧	١٤٩.١٨٢
١٩٠٠	٦٠.٧٦٤	١٩٠٨	١٠٣.٣٨٧
١٩٠١	٨٥.٩٨	١٩٠٩	٥٧.٥٥١
١٩٠٢	٥٧.٦٨٨	١٩١٠	٨٤.٢٦٠
١٩٠٣	٧٦.٢٠٣	١٩١١	٩١.٢٢٣
١٩٠٤	١٠٦.٢٣٦	١٩١٢	٨٠.٥٩٥
١٩٠٥	١٢٩.٩٠٠	١٩١٣	١٠١.٢٣٠
١٩٠٦	١٥٣.٧٤٨	١٩١٤	١٣٨.٠٥١

ليكون إجمالي عدد المهاجرين هو ١.٥١٢.٦٣١. ويعد عام ١٩٠٦ عام الذروة بالنسبة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة ويبلغ متوسط عدد المهاجرين سنويا ٩٣ ألفا وقد استقر كل هؤلاء المهاجرين في الولايات المتحدة بشكل دائم، ولم يهاجر منهم سوى نسبة ضئيلة تبلغ ٨ في مقابل ٣0.76% من بقية الجماعات المهاجرة، وكانت نسبة الأيرلنديين العائدين أقل إذ كانت لاتزيد على ٧% وكان المهاجر اليهودي يصل إلى الولايات المتحدة ولديه النية في الاستقرار الدائم، وليس ادخال بعض الأمور ثم العودة إلى الوطن الأم، ومن ثم فقد كان يحضر معه أسرته، وكانت توجد نسبة عالية من النساء والأطفال فكانت نحو ٤٤% من جملة المهاجرين اليهود من الإناث في مقابل ٣١.٧% بالنسبة إلى الجماعات المهاجرة الأخرى وكان ٢٤% من المهاجرين اليهود أطفالا تحت سن الثالثة عشرة أما في الجماعات الأخرى فكانت النسبة 12.4% وكان يوجد بين المهاجرين اليهود نسبة عالية من العمال الصناعيين تصل إلى ٦٦% من الأجراء على عكس الإيطاليين، والأيرلنديين الذين كانوا من أصول فلاحية، وبحسب احصائيات الهجرة الأمريكية «١٨٩٩ - ١٩١٤» كان المهاجرون اليهود يشكلون ٣١% من جملة العمال الصناعيين، وكانوا يشكلون أحيانا الأغلبية المطلقة في بعض الفروع مثل صناء الملابس.. وكان عدد العمال الزراعيين بين اليهود هو ٦.٢ مقابل ٢٨.١% بالنسبة إلى جملة المهاجرين وكان عدد العاملين في صناعة الملابس ٣٩.٦% وفي الصناعات الأخرى ٢٦% «أي ٦.

٦٥% من الأجراء» في مقابل ١٧.٨% بين غير اليهود. كما أن ٩.٢% من المهاجرين اليهود كانوا يعملون في التجارة والنقل مقابل ٦.٧% من جملة المهاجرين وقد ساهم ذلك في سرعة اندماجهم في المجتمع وتحقيقهم حراكا اجتماعيا أعلى مما حققته كثير من جماعات المهاجرين الأخرى، وهذا هو الذي ساهم نهاية الأمر في «أمركتهم» الكاملة وفي تركيزهم في صناعات بعينها دون غيرها. وكان التركيب الاثنى للمهاجرين اليهود في خلال الفترة بين عامي ١٨٩٩ و ١٩١٤ كما يلي حسب بلد الأصل

روسيا	٢١.٧٪	بريطانيا العظمى	٤.٠٪
الإمبراطورية النمساوية والمجرية	١٦.٢٪	كندا	١.٢٪
رومانيا	٤.٢٪	ألمانيا	٠.٧٪
		بلاد أخرى	٢.٠٪

ولكن معظم اليهود الذين جاءوا من خارج روسيا هم من يهود اليديشية أيضا. وقد توقفت الهجرة في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكنها فتحت أبوابها مرة أخرى في عام ١٩١٤، وكان عدد المهاجرين في البداية ضئيلا ثم أخذ في الازدياد إلى أن وصل إلى الذروة في عام ١٩٢١ ثم انخفض في أعوام ١٩٢٢ و 1923 و ١٩٢٤ بسبب نظام النصاب، وفيما يلي بيان بأعداد المهاجرين

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩١٥	٢٦.٤٩٧	١٩٢٠	١٤.٢٩٢
١٩١٦	١٥.١٠٨	١٩٢١	١١٩.٠٢٦
١٩١٧	١٧.٣٤٢	١٩٢٢	٥٣.٥٢٤
١٩١٨	٢.٧٦٢	١٩٢٣	٤٩.٧١٩
١٩١٩	٢.٠٥٥	١٩٢٤	٤٩.٩٨٩

ليكون إجمالي عدد المهاجرين هو ٣٢٤.٣٥٢ ولنا أن نلاحظ أن هذه الفترة الثانية هي فترة ظهور الصهيونية ونشاطها أيضا ولابد أن ندرك أن حركة أعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق الدول الغربية، لخوفها على أمنها الداخلي، ولليهود الغرب المندمجين ، الذين كان وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية وينبع تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين للمشروع الصهيوني من مخاوفهم هذه. ومن هنا كان تبنيهم لما نسميه «الصهيونية التوطنية» ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بانجلترا التي اتجه إليها نحو ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٣٥. وقد كان لوصولهم أثره في إثارة قلق السلطات البريطانية. وظهرت المحاولات الرامية إلى تحويل تيار الهجرة اليهودية بعيداً عن إنجلترا ابتداء بمشروع شرق أفريقيا لإنشاء دولة صهيونية

هناك ، مروراً بقانون الأجانب فى عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود إلى إنجلترا (وهو المشروع الذى كان بلفور من أكبر المدافعين عنه» ، وانتهاء بوعده بلفور الذى حول فلسطين إلى أرض يلقى فيها الفائض البشرى اليهودى - كما

كان يطلق على المهاجرين اليهود آنذاك . وام يتجه إلى ألمانيا فى نفس الفترة سوى مائة ألف يهودى ، ولكن هذا لا يتضمن اليهود الذين هاجروا من المقاطعات البولندية

وهم من يهود اليديشية غير المندمجين وبالتالي، قام النازيون بالدعاية ضد اليهود وبيث السموم عن خطر التكاثر اليهودى والهيمنة اليهودية فى وقت كانت أعداد اليهود أخذة فى التناقص الفعلى، وإذا كان بلفور قد حل المسألة اليهودية فى إنجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين ، فإن هذا الحل لم يكن متاحاً لهتلر لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا ولهذا تخلص متهم بآبادتهم ونلاحظ أن عدد المهاجرين إلى فلسطين كان فى بداية الفترة ١٨٠٦ ، وبلغ 8.175 فى عام ١٩٢3 ، أى بعد فتح أبواب

الهجرة وإنشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية، ثم قفز العدد إلى ٨٩٢.١٣ فى عام ١٩٢٤ ، وشهدت الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية، وهو أدى إلى خوف كثير من الدول من الأيدى العاملة المهاجرة لأنها قد تفاقم من ظروف البطالة فيها، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بمقدار ماتسمح به قدرتها الاستيعابية، ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب أفريقيا وأستراليا، وقد أدى تصاعد المقاومة العربية فى فلسطين إلى

الحد من الهجرة الاستيطانية، ولكن فلسطين ظلت مع هذا مفتوحة الأبواب أمام الهجرة، ولعل أكبر مثل على محاولة الدول الغربية للحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التى أصدرت أولاً قانون النصاب فى عام ١٩٢٢ وأعقبته بقانون جونسون فى عام ١٩٢٤ . حيث لم يكن يسمح - بحسب هذا القانون إلا بهجرة ما يساوى نسبة ٢% من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش فى الولايات المتحدة وفق احصاء عام ١٨٩٠ وقد عرفت المجموعة القومية بنسبتها إلى البلد الأم وليس بنسبتها إلى الانتماء الدينى أو الإثنى. وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوروبا وروسيا هو ٢٤١.١٠ فى مقابل نحو ٥٠ ألفاً فى عام ١٩٢٤ ٧٤٨.١٥٢ فى عام ١٩٠٦ وكانت أعداد المهاجرين فى تلك الفترة كما يلى.

عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين	السنة
١١.٥٢٦	١٩٢٠	١٠.٢٩٢	١٩٢٥
١١٩.٦٩٢	١٩٢١	١٠.٢٦٨	١٩٢٦
٢.٧٧٥	١٩٢٢	١١.٤٨٣	١٩٢٧
٢.٢٧٢	١٩٢٣	١١.٦٢٩	١٩٢٨
		١٢.٤٧٩	١٩٢٩

أى أن الهجرة بنغت الحد الأقصى المسموح به حتى عام ١٩٢٠ وهكذا فبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥% من جملة المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤ انخفضت النسبة إلى ٢٥% فى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى 1930 . وقد أغلقت كثير من البلاد أبوابها، وكما يقول رويين، أصبحت معظم البلاد مغلقة أمام المهاجرين فى عام ١٩٣٣، ولم يبق أمامهم سوى فلسطين (المستعمرة)، بمعنى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنيوية أى بيئة قانونية وظروفا موضوعية تفرض على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاءوا أم أبوا. وبالفعل، قفز عدد المهاجرين الاستيطانيين من ٤٠٠٠ فى عام ١٩٣١ إلى ١٢ ٥٥٣ فى عام ١٩٣٢ وإلى ٣٧٠ ٣٣٧ فى عام ١٩٣٣ ولذا يمكننا القول عنصر الطرد من الولايات المتحدة وليس الجذب إلى أرض الميعاد هو الذى حدد مسار الهجرة ومع هذا يلاحظ أنه فى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠، حيث كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحا، هاجر إليها ٣٨٧ 7٢ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٩٠٨ ١٧٢ (أى ٤٢%) ولم يهاجر فى نفس الفترة سوى ١٧٩. ١٠ إلى فلسطين وعلى الرغم من تباكى الدول الغربية على مصير اليهود ، فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم. كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقا من العقيدة الصهيونية التي تدعو إلى توطين اليهود فى فلسطين - وفلسطين فقط ومن هنا، كانت الجهود المكثفة للصهاينة من أجل إفشال مؤتمر إفيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين ورفض أية عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخلق ماسميناه «الصهيونية البنيوية» وفى الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨، والتي يمكن أن تسمى المرحلة النازية ، بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا والبلاد التي يهيمن عليها النازيون ، والمهاجرون من كل أوربا ٥٤٠ ألفا، خلاف عشرات الألوف من اليهود الذين هجرهم الاتحاد السوفيتى إبان الحرب لإنقاذهم وعشرات الألوف الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفيتى فرارا من النازى وقد هاجر ٢٥٠ ألفا (أى ٤٦%) منهم إلى فلسطين بسبب سياسة إغلاق الأبواب، وهاجر الباقون وهم ٢٩٠ ألفا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١١٠ آلاف (أى ٢٠%) وهاجر فى الفترة من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٨ نحو 300 ألف يهودى، منهم ١٢٠ ألفا (أى 40%) إلى فلسطين والباقيون .

هم. ١٨ ألفا (أى ٦٠%) . هاجروا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١٢٥ ألفا (أى ٤٢%) وهكذا أصبحت الولايات المتحدة، مرة أخرى، بلاد الجذب الأكثر، حتى فى أثناء سنى الحرب والإبادة النازية ويمكننا أن نقول أن المستوطن الصهيونى لم يشكل ملجأ لليهود أوربا، فمن مجموع ٧٥٠ ألف مهاجر (ويمكن أن نضيف إليهم مئات الألوف من المهاجرين إلى الاتحاد السوفيتى) لم يهاجر إلى فلسطين سوى 370 ألفا أى أنه على الرغم من شراسة الصهيونية البنيوية ولا إنسانيتها، فإن مسار الهجرة لم يتجه إلى فلسطين . وفيما يلى جدول بعدد المهاجرين ونسبهم المئوية - حسب الموسوعة اليهودية - بين عامى ١٨٨١ و ١٩٤٨

جهة الهجرة	عدد المهاجرين ١٩١٤-١٨٨١	النسبة %	عدد المهاجرين ١٩٤٨-١٩١٥	النسبة %
الولايات المتحدة	٢,٠٤٠,٠٠٠	٪٨٥	٦٥٠,٠٠٠	٪٤١
كندا	١٠٥,٠٠٠	٪٤	٦٠,٠٠٠	٪٤
الأرجنتين	١١٣,٠٠٠	٪٥	١١٥,٠٠٠	٪٧
بقية أمريكا اللاتينية	١٤,٠٠٠	٪٠,٦	١٤٠,٠٠٠	٪٩
جنوب أفريقيا	٤٣,٠٠٠	٪٢	٢٥,٠٠٠	٪١,٦
فلسطين	٧٠,٠٠٠	٪٣	٤٨٥,٠٠٠	٪٣٠
بلاد أخرى	١٥,٠٠٠	٪٠,٦	١٢٥,٠٠٠	٪٨
المجموع	٢,٤٠٠,٠٠٠		١,٦٠٠,٠٠٠	

والجدول هنا يبين أن الولايات المتحدة هي بلد الهجرة بلا منازع أو منافس وتشغل الأرجنتين و كندا المرتبتين الثانية والثالثة، ولا تأتي فلسطين إلا في المرتبة الثالثة - وهي مرتبة ثالثة تجاوزا لأن مجموع عدد المهاجرين إليها أقل بكثير من مجموع عدد المهاجرين إلى بلاد الاستيطان الأخرى. أما في الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٤٨، فإن الولايات المتحدة كانت لاتزال تشغل المرتبة الأولى وكانت فلسطين تشغل مرتبة ثانية قريبة من المرتبة الأولى ومن الطريف أن مجموع عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وكندا في خلال الفترتين هو تقريبا نفس عدد المهاجرين إلى فلسطين - ولكن أحد المصادر الأخرى يذهب إلى أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وحدها، من عام ١٨٨١ " حتى عام ١٩٤٨، يعادل مجموع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين في ذات الفترة وإذا استبعدنا الولايات المتحدة، وعقدنا مقارنة بين عدد المهاجرين إلى فلسطين من جهة وبقية بلاد العالم من جهة أخرى، لوجدنا أن عدد المهاجرين إلى فلسطين هو ٥٥٥ ألفا في مقابل ٦٨٢ ألفا هاجروا إلى بقية بلاد العالم، أي أن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين أقل من عدد المهاجرين إلى بقية البلاد وحتى في الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٤٨، وهي الفترة التي شهدت قمة النشاط الصهيوني، حيث فتحت حكومة الانتداب أبواب فلسطين للهجرة الاستيطانية، وحيث أغلقت بلاد العالم الحر أبوابها دون المهاجرين اليهود وغير اليهود، كان عدد المهاجرين إلى فلسطين ٤٨٥ ألفا في مقابل ٤٦٥ ألفا للبلاد الأخرى فيما عدا الولايات المتحدة وكل

هذه الإحصائيات تبين أن فلسطين ليست نقطة الجذب اليهودى كما تدعى الأدبيات الصهيونية وأن الحركة الصهيونية لم تحرز نجاحا فيما كانت تهدف إليه ويلاحظ أن كافة البلاد التي يهاجر إليها اليهود هى بلاد شهدت تجارب استعمارية استيطانية أسسها الرجل الأبيض ومن ثم، فإن الهجرة اليهودية ليست ظاهرة يهودية بمقدار ما هى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية (د) المرحلة الرابعة: منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر .

وبانتهاء الأربعينيات، أصبحت الكتلة اليهودية الكبرى ، موجودة فى الولايات المتحدة، مع وجود كتلة أخرى فى أوربا آخذة فى التناقص، ومع وجود أقليات متناثرة فى أنحاء العالم وقد ظهرت الكتلة اليهودية الاستيطانية فى فلسطين، فأصبح هناك قطبان أساسيان يتنازعان هجرة اليهود هما الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين)، وكلاهما بلد استيطانى يمكن للمهاجر اليهودى أن يحقق فيه الحراك الاجتماعى الذى فشل فى تحقيقه فى بلده ومع هذا، تشكل دول أخرى مثل أستراليا وفرنسا جاذبية خاصة بالنسبة إلى بعض المهاجرين اليهود ويمكن أن نضيف بعدا آخر يساعد فى توجه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ألا وهو الميراث الاقتصادى للجماعات اليهودية كجماعة وظيفية تركز أعضاؤها فى قطاعات المال والتجارة. والواقع أن هذا يعنى تأثرهم السلبي بالثورات القومية أو الاشتراكية التى تستولى على هذه القطاعات

فتوهمها، أو تحاول صبغها بصبغة قومية، أو تتدخل فيها بما يقلل من فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية. ويمكننا فى واقع الأمر أن نفسر حركة هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين (الحراك الاجتماعى وميراث الجماعة الوظيفية الوسيطة) باعتبارها هجرة إلى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسى من بلاد الاقتصاد الاشتراكى والفقر والثورات القومية الاشتراكية .

١ - فمثلا يمكن تفسير الهجرة من الاتحاد السوفيتى على أنها تعبير عن ضيق يهود الاتحاد السوفيتى بالنظام الاشتراكى الذى يضيق الخناق على القطاع التجارى وفى نفس الإطار يمكن تفسير الظاهرة التى تسمى فى المصطلح الصهيونى «التساقط» أى خروج اليهود من الاتحاد السوفيتى بزعم الهجرة إلى إسرائيل ثم تغيير الاتجاه والذهاب إلى بلد آخر هو الولايات المتحدة فى العادة. فهم يفضلون الهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعى، فى حين لا تشكل إسرائيل أية جاذبية بالنسبة إليهم وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة إلى إسرائيل فحققت مثل هذه الهجرة لهم قسطا من الحراك الاجتماعى. خصوصا وأن مؤهلاتهم لم تكن عالية، بينما نجد أن نسبة التساقط بين يهود أوكرانيا تصل إلى ٩٠ % لأن مستواهم المعيشى مرتفع وإذا نجح يلتسين فى تحقيق الإصلاحات الاقتصادية والانفتاح التجارى الذى يطمح إليه، فإننا

نتصور أن أعداد المهاجرين ستتناقص لأن فرص الحراك الاجتماعى ستتزايد أمامهم وبعد الانتفاضة الفلسطينية التى تخلق جوا من عدم الاستقرار السياسى، وصلت نسبة التساقط بين اليهود السوفيت إلى

٩٠% من جملة المهاجرين ، ومع هذا، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية وإغلاق الولايات المتحد أبوابها أمام المهاجرين السوفييت إلى زيادة خروجهم من الاتحاد السوفيتي واستيطانهم فى فلسطين ولكنهم على أية حال، يذهبون إلى إسرائيل بنية التوجه إلى بلد آخر يحقق لهم طموحهم فى الحراك الاجتماعى ، وذلك عندما تسنح الفرصة.

٢ - وقد ظل يهود إيران يمارسون نشاطهم تحت حكم الشاه ثم خرجوا من إيران بأعداد هائلة بعد قيام الثورة الإيرانية لأنها حاولت أن توجه الاقتصاد وجهة لا تتفق مع معايير الاقتصاد الحر وفى كويا. كانت هناك جماعة يهودية، ولكن حينما حدثت الثورة الاشتراكية انخفض العدد إلى العشر، وذلك على الرغم من أن الثورة الكوبية كانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ولم تقف في طريق النشاط الصهيونى ولم تسعى معاملة اليهود على الإطلاق باعتراف المراجع الصهيونية، ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى يهود شيلي الذين تركوها حينما وصل أليندى بتوجهه الاشتراكى إلى الحكم، وعادوا إليها مع بينوشيه ممثل الفاشية العسكرية، فارتباط أعضاء الجماعات اليهودية فى كثير من بلاد العالم بنمط إنتاجى معين وب عقلية تجارية محددة، وامتلاكهم الخبرات إدارية ومهنية معينة، جعل من العسير عليهم الاستمرار فى المجتمع الجديد، فهم «ضحايا التأميم» كما يقول أحد المراجع الإسرائيلية ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسى فى أمريكا اللاتينية، يلاحظ زيادة هجرة أعضاء الجماعات ونفس الوضع يذطبق على يهود جنوب أفريقيا، فمع تزايد ثورات السود يتجه أعضاء الجماعة إلى الولايات المتحدة .

٣ - وربما تعود هجرة اليهود من البلاد العربية فى الخمسينيات إلى مركب من الأسباب منها قيام الدولة الصهيونية وما خلفته من مشاكل لليهود العرب ، ومنها ارتباط عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية ومما لاشك فيه أن التحول البنىوى الذى خاضته بعض المجتمعات العربية، مثل المجتمعين المصرى والسورى، وقيام تجارب تنموية تحت إشراف الدولة، قد ساهما بشكل عميق فى عملية خروج اليهود ، التي لايمكن رؤيتها كظاهرة منفصلة عن خروج جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الإيطاليين واليونانيين من مصر ممن لم يستطيعوا التلاؤم مع إجراءات التمسير والتعريب والتأميم وإلى جانب هذا ، حققت إسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسما من الحراك الاجتماعى باعتبار أن المستوى المعيشى فى البلاد العربية أقل منه فى إسرائيل كما ان يهود البلاد العربية لم يكن لديهم الخبرات الكافية المطلوبة فى الولايات المتحدة. ويلاحظ أن عددا كبيرا من أعضاء نخبهم الاقتصادية والثقافية هاجرت إلى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشى المرتفع الذى يفوق نظيره فى إسرائيل والتي تتميز باقتصاد متقدم ومن ثم تحتاج إلى خبراتهم ورأسمالهم ومن ناحية أخرى، هاجرت جماهير يهودية إلى فرنسا حينما ساحت لها الفرصة، فقد هاجر إليها معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب .

٤ - وفى هذا الاطار، يمكن تفسير ظاهرة هجرة يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا إلى الولايات المتحدة، فالهجرة إلى إسرائيل لن تؤدى إلى أي تحسن فى مستوى معيشتهم كما أن التجمع الصهيوني لن يمكنه استيعابهم بخبراتهم المهنية والإدارية المتقدمة

5- ويلاحظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لايهاجرون مطلقا إلى إسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية، فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وفق نموذجنا التفسيري وإن كان يلاحظ أن يهود إنجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة، ربما لتفانم الأزمة الاقتصادية فى إنجلترا، فهي بلد ذات مستقبل اقتصادى مظلّم على حد قول أحد المهاجرين البريطانيين اليهود إلى الولايات المتحدة .

٦ - بل ويلاحظ أن هناك هجرة إسرائيلية متزايدة إلى الولايات المتحدة ،شكلت ما يسمى «الدياسبورا الإسرائيلية» يبلغ عددها فى بعض الإحصائيات نصف مليون ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا وفى نفس الاطار أيضا، يمكن تفسير هجرة أو تهجير يهود الفلاشا تحت ظروف المجاعة، فهي هجرة سيحققون من خلالها حراكا اجتماعيا كبيرا ويمكن القول ان مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية آخذة فى النضوب، فأعضاء أكبر جماعة يهودية فى العالم (فى الولايات المتحدة) لايهاجرون، ويهود العالم الغربى إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم نفس النمط وقد تم تصفية يهود العالم الشرقى والإسلامى، فلم يبق سوى أفراد قلائل وتساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط، وكذلك عزوف اليهود عن الإنجاب، فى تناقص العدد الكلى لليهود وبالتالي فى تناقص العدد المحتمل للمهاجرين، وهو مايعنى أن الوقود البشرى للكيان الصهيونى لم يعد متوافرا بنفس

الكثافة ولم يبق سوى الأحتياطي البشرى الوحيد للكيان الصهيونى فى الاتحاد السوفيتى إلا أن خروج اليهود السوفييت وتوجههم إلى إسرائيل يخضع لنفس النمط الذى اقترحناه: شرق أوروبا كمصدر للمادة البشرية، والولايات المتحدة كمستورد لها ولكن، كما أسلفنا، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية، وإغلاق باب

الهجرة إلى أمريكا، إلى تحويل هذه الاعداد إلى إسرائيل

وفيما يلي جدول الهجرات اليهودية منذ عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٩٣

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوروبا	أمريكا	غير معروف
١٨٨٢-١٩٠٣	٢٠.٠٠٠-٢٠.٠٠٠					
١٩١١-١٩١٤	٢٥.٠٠٠-٤٠.٠٠٠					
١٩١٥-١٩١٦	١٨٢.٨٥٧	٤٠.٨٩٥	٤.٠٤٦	٢٧٧.٢٨٧	٧.٧٥٤	٥٩.٧٨٦
١٩١٦-١٩١٧	٢٥.١٨٢	٦.١٨١	٢٢-	٢٧.٨٧٢	٦٧٨	٥.٩٢٢
١٩١٧-١٩١٨	٨١.٦١٢	٩.١٨٢	٦٦٦	٦٦.٦١٧	٢.٦٤٦	٢.٦٤٢
١٩١٨-١٩١٩	١٩٧.٢٢٤	١٦.٢٧٢	١.٢١٢	١٧١.٦٧٢	٤.٥٨٩	٢.٦٨٦
١٩١٩-١٩٢٠	٨١.٨٠٨	١٢.٦٦٦	١.٠٧٢	٦٢.٩٦٨	١.٠٨	٤.٥٤٤
١٩٢٠-١٩٢١	٥٦.٤٦٧	٦.١٤٤	٩.٦	٤٨.٤٥١	١٢٨	٥.٨٢٨
١٩٢١-١٩٢٢	١.٠١.٨٢٨	١.٧٢٩	٨.٦٩٢	٧٦.٥٥٤	٤٧٨	١١.٨٦٥
١٩٢٢-١٩٢٣	٢٢٩.٩٥٤	٧١.٦٥٢	٢٩.٢١٥	١٢١.٩٦٢	١.٤٢٢	٥.٧٠٢
١٩٢٣-١٩٢٤	١٧٠.٥٦٢	٥٧.٥٦٥	٢٦.٦٦٢	٨١.١٩٥	١.٩٥٤	٢.٦٨٧
١٩٢٤-١٩٢٥	١٧٥.٢٧٦	١٠٢.٢٩٦	٢٠.٢٨٢	٤٧.٠٧٤	١.٢٨٦	٢.٦٤٦
١٩٢٥-١٩٢٦	٢٤.٦٦٠	٦.٨٦٧	١٠.٢٨٦	٦.٢٢٢	٩٥٠	٢٧٥
١٩٢٦-١٩٢٧	١١.٥٧٥	٢.٠١٤	٥.١٠٢	٢.٦٤٧	٩٢٠	٢٨٢
١٩٢٧-١٩٢٨	١٨.٤٩١	٢.٢٥٧	١٢.٥٠٩	١.٢٦٩	١.٠٩١	٦٦٥
١٩٢٨-١٩٢٩	٢٧.٥٢٨	١.٤٢٢	٢٢.٨١٥	٢.٠٦٥	١.٦٥٥	٦٦
١٩٢٩-١٩٣٠	٥٦.٢٢٠	٢.١٢٩	٤٥.٢٨٤	٦.٧٢٩	١.٠٦٧	١٠١
١٩٣٠-١٩٣١	٧٢.٦٢٤	٤.٢٢٠	٢٥.٧٤٧	٢٩.٨١٢	١.٤١٠	١.٤٢٥
١٩٣١-١٩٣٢	٢٧.٢٠٠	٧.٩٢١	٤.١١٢	١٢.٦١٥	١.٢٢٠	٢٤١
١٩٣٢-١٩٣٣	٢٢.٠٠٠	٢.٥٤٤	٤.٤٢٩	١٤.٧٢١	١.١٤٧	١٢٧
١٩٣٣-١٩٣٤	٢٤.٠٠٠	١.٧٨٢	٥.٢٧٩	١٦.٦٦٩	١.١٥٨	٢٠٤
١٩٣٤-١٩٣٥	٤٧.٧٢٥	٤.١٤٩	١٨.٠٤٨	٢٢.٢٧٥	١.٩٦٩	١٩١
١٩٣٥-١٩٣٦	٦١.٥٢٢	٥.٢٥٥	٢١.٨١٦	١١.٨٢٥	٢.١٨٧	٢٥٠
١٩٣٦-١٩٣٧	٦٤.٤٨٩	٤.٩٦١	٢٨.٦٧٢	١٤.٢١٢	٦.٤٩٧	١٤٣
١٩٣٧-١٩٣٨	٥٥.٠٢٦	٥.٠٥٧	١٧.٢٤٠	٢٨.١٢٤	٤.١٨٨	٢٢٧
١٩٣٨-١٩٣٩	٢١.١١٥	٥.٢٢٢	٨.٥٢٥	١٢.٨٧٩	٢.٠٩٦	٢٨٢
١٩٣٩-١٩٤٠	١٥.٩٥٧	٢.١٢٧	٢.٠٢٤	٧.٤٢٥	٢.١٢٢	٢٢٩

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوروبا	أمريكا	غير معروف
١٩٦٧	١١٤,٤٦٦	١,٩٨٧	٦,٢٦٨	٤,٢٩٥	١,٧٧١	١٤٨
١٩٦٨	٢٠,٧٠٢	٤,٦٧١	٧,٥٦٧	٦,٠٢٦	٢,٢٧٥	١٦١
١٩٦٩	٣٨,١١١	٧,٠١٨	٥,٩٢٦	١٥,٢٣٦	٩,٦٠١	٢٢٠
١٩٧٠	٣٦,٧٥٠	٦,٩٠٤	٣,٧٨٥	١٤,٤٣٤	١١,٤٠٥	٢٦٢
١٩٧١	٤١,٩٣٠	٥,٧٧٨	٢,٢٥٤	٢٠,٨٨٨	١٢,٨٨٥	٢٥٠
١٩٧٢	٥٥,٨٨٨	٣,١٤٣	٢,٧٦٦	٢٩,١٤٥	١٠,٨١٤	٢٠٠
١٩٧٣	٥٤,٨٨٦	٢,٠٢٥	٢,٨٣٩	٤٠,١٩٢	٩,٥٢٢	٨٠
١٩٧٤	٣١,٩٨١	١,١٧٩	١,٢١٦	٢٣,١٧٦	٦,٤٣٩	٢١٠
١٩٧٥	٢٠,٠٢٨	٩٢٧	٦٨٩	١٣,٤١٧	٤,٩٨٩	٦٠
١٩٧٦	١٩,٧٥٤	١,١٣٥	١١٧	١٢,١٢٧	٥,٧٧١	١١٠
١٩٧٧	٢١,٤٢٩	٩٠٨	١,٦٢٠	١٢,٦٦٠	٦,٢٠١	٤٠
١٩٧٨	٢٦,٢٩٤	١,٧٣٦	١,٦٨٣	١٦,٥٤٩	٦,٢٠٥	١٢١
١٩٧٩	٢٧,٢٢٢	٧,٠٨٧	١,٣٤٠	٢٢,٤٠٤	٦,٠٢٤	٣١٧
١٩٨٠	٢٠,٤٢٨	٣,٢٠٢	١,٠٠٧	١١,٧٩٢	٤,٢٥٠	٧٧
١٩٨١	١٢,٥٩١	١,٢١٥	١,١٧٠	٥,٩٠١	٤,٢٤٣	٦٢
١٩٨٢	١٢,٧٢٣	٩٥١	١,٥٥٥	٦,١٦٨	٥,٠٠٣	٤٦
١٩٨٣	١٦,٩٠٦	٨٤٤	٣,٠٩٤	٦,١٥٤	٦,٧٥٨	٥٦
١٩٨٤	١٩,٩٨١	٧٠٠	٨,٨٨٥	٥,٤٨٥	٤,٨٧٦	٢٤٠
١٩٨٥	١٠,٦٤٢	٦٠٧	٢,٣١٨	٢,٩٦٤	٣,٧٣٩	١٤٠
١٩٨٦	٩,٥٠٥	١,١٨٢	٩٨٢	٢,٦٧٥	٢,٦٢٤	٢١٠
١٩٨٧	١٢,٩٦٥	١,٨٨٨	١,٢٠٥	٦,٠٤٤	٢,٨١٢	١٦٠
١٩٨٨	٢٤,٠٥٠	١,٧٠٠	١,٣٣٤	٦,٠١٢	٢,٩٦٩	١٦٠
١٩٨٩	٢٤,٠٥٠	١٨٥	١,٨٦٦	١٦,٧٦٦	٤,١٤٧	٩١
١٩٩٠	١٩٩,٥١٦	٩٤٠	٤,٤٧٢	١٨١,٦٥٠	٤,٢١٥	١٢١
١٩٩١	١٧٦,١٠٠	٦٢٢	٢,٢٥١	١٥٢,١١٢	٢,٠٢٣	٦٢
١٩٩٢	٧٧,٠٥٧	٨٩١	٤,٠٧٥	٦٨,٩١٦	٢,٠٠٦	١٢٢
١٩٩٣	٧٦,٨٠٤	١,٧٢٨	١,٤٣٦	٧٠,٣١٥	٢,٢٨٣	٤٨

ويمكننا الآن أن نتناول الهجرة اليهودية في إطار الادعاءات الصهيونية التي هيمنت علي العقل العربي والتي تذهب إلى أن اليهود يتوجهون إلى فلسطين كلما سنحت لهم الفرصة ، وأن بلاد العالم تمثل بالنسبة لهم أرض الشتات والمنفى، أما فلسطين فهي أرض الميعاد والعودة.. ولندع الأرقام تتحدث والجدول التالي يتناول هجرة أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين وغيرها في كل أرجاء العالم في الفترة من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ .

الفترة	الولايات المتحدة	كندا	الارجنتين	البرازيل	أرجواي	البحر الأحمر في الأمريكتين	جنوب أفريقيا	فلسطين	الدول الأخرى	الإجمالي
١٨٨٠-١٨٨١	٢.٠٠٠	١.٦٠٠	٢.٠٠٠	٥٠٠	—	١.٠٠٠	١.٠٠٠	١.٠٠٠	٢.٠٠٠	٢٢١.٠٠٠
١٨٨١-١٨٨٢	٦٧٥	١.٠٠٠	٢٥.٠٠٠	١.٠٠٠	—	١.٠٠٠	٢٢.٠٠٠	٢٥.٠٠٠	٤.٠٠٠	٧٦٤.٥٠٠
١٨٨٢-١٨٨٣	١.٢٤٦.٤٠٠	٩٥.٢٠٠	٨٧.٦٦٤	٨.٧٥٠	—	٣.٠٠٠	٢١.٣٧٧	٣٠.٠٠٠	١٠.٠٠٠	١.٦٠٩.٤٤١
١٨٨٣-١٨٨٤	٧٦.٤٥٠	١٠.٤٥٠	٣.٥٠٣	٢.٠٠٠	١.٠٠٠	٥.٠٠٠	٩.٧٠٠	١٥.٠٠٠	٥.٠٠٠	٨٩.٣١٠
١٨٨٤-١٨٨٥	٢٨٠.٢٨٣	١٤.٤٠٠	٣٩.٧١٣	٧.١٣٩	٣.٠٠٠	٧.٠٠٠	٤.٦٣٠	٦.٧٦٤	١٠.٠٠٠	٤٢٦.٩٢٠
١٨٨٥-١٨٨٦	٥٤.٩٩٨	١٥.٢٠٠	٣٣.٧٣١	٢٢.٣٩٦	٦.٣٧٠	١٠.٠٠٠	١٠.٤٤٠	١٥.١٧٩	١٠.٠٠٠	١٤٢.٩٠٨
١٨٨٦-١٨٨٧	١٧.٩٨٦	٤.٢٠٠	١٢.٧٠٠	١٣.٠٧٥	٣.٢٨٠	١٥.٠٠٠	٤.٥٠٧	١٤.٥٠٣	٢.٠٠٠	٣٢٨.٢٥٠
١٨٨٧-١٨٨٨	٧٩.٨٦٩	٩.٠٠٠	١٤.٧٨٩	١٠.٦٠٠	٧.٦٧٧	١٥.٠٠٠	٤.٣٠٠	١٥.٤٦٠	٦.٠٠٠	٣٦٦.٥٩٥
١٨٨٨-١٨٨٩	٧٠.٩٥٤	٨.٠٠٠	٤.٥٠٠	٦.٠٠٠	١.٠٠٠	٢.٠٠٠	٢.٠٠٠	٣٠.٠٠٠	١٠.٠٠٠	١٣٢.٣٥٤
المجموع	٢.٨٠٦.٨٩٠	٢٥٣.٤٥٠	٢٢٣.٥٤٠	٧١.٣٦٠	٢٢.٣٢٧	٥٩.٠٠٠	٧٥.٧٦٤	٣٦٨.٩٢٦	٢٢٨.٠٠٠	٢.٩١٧.٣٨٨

ويلاحظ من الجدول السابق أنه من مجموع ٣.٩١٧.٣٨٨ من المهاجرين لم يتجه سوى ٢٧٨.٩٥٦ إلى فلسطين في فترة مائة عام تمتد من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ وذلك برغم كل النشاط الاستعماري والصهيوني المكثف، ومن الطريف أن هذا العدد مساو تقريبا لعدد اليهود الذين اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية في نفس الفترة «٢٢٧.٣٧٦» بفارق ٢ ٦٢٩ يهوديا. ولو استبعدنا الهجرة فيما بعد عام ١٩٣١ حيث أغلقت أمريكا اللاتينية أبوابها فسنكتشف أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية كان ١.601 في مقابل 125.944 إلى فلسطين، بل إن بلدا واحدا مثل الأرجنتين هاجر إليه 5٥١.١٩١ أي أكثر من كل الذين هاجروا إلى فلسطين في نفس الفترة «ويحسب احصائيات روبين، كان

يوجد في الارجننتين في عام ١٩٣٠ نحو ٢٢٠ ألفا و ٢٩١ ألفا في أمريكا اللاتينية كلها» كما أن بلدا مثل كندا كان يضم ١٥٠ ألف يهودي في عام ١٩٣٠ بينما كانت فلسطين لاتضم سوى 170 ألفا ولكن التحدي الأكبر لأرض الميعاد كان يأتي من البلد اذهبي أو «الجولدن مدينا» أي الولايات المتحدة. ففي الفترة التي نشير اليها، هاجر إلى الولايات المتحدة 3.801.890 في مقابل 378.956 هاجروا إلى فلسطين عدد المهاجرين اليهود إلى كل من الولايات المتحدة وفلسطين في الفترة ١٩١٥ - مايو ١٩٤٨

السنة	الولايات المتحدة	فلسطين	السنة	الولايات المتحدة	فلسطين
١٩١٥	٢٦.٤٩٧	-	١٩٣٢	٢.٧٥٥	١٢.٥٥٢
١٩١٦	١٥.١٠٨	-	١٩٣٣	٢.٣٧٢	٢٧.٣٣٧
١٩١٧	١٧.٣٤٢	-	١٩٣٤	٤.١٣٤	٤٥.٢٦٧
١٩١٨	٣.٦٧٢	-	١٩٣٥	٤.٨٢٧	٦٦.٤٧٢
١٩١٩	٣.٠٥٥	١.٨٠٦	١٩٣٦	٦.٢٥٢	٢٩.٥٩٥
١٩٢٠	١٤.٣٩٢	٨.٢٢٣	١٩٣٧	١١.٣٥٢	١٠.٦٢٩
١٩٢١	١١٩.٣٦	٨.٢٩٤	١٩٣٨	١٩.٧٣٦	١٤.٦٧٥
١٩٢٢	٥٣.٥٢٤	٨.٦٨٥	١٩٣٩	٤٣.٤٥٠	٣١.١٩٥
١٩٢٣	٤٩.٧١٩	٨.١٧٥	١٩٤٠	٣٦.٩٤٥	١٠.٦٤٣
١٩٢٤	٤٩.٩٨٩	١٣.٨٩٢	١٩٤١	٢٣.٧٣٧	٤.٥٩٢
١٩٢٥	١٠.٢٩٢	٣٤.٢٨٦	١٩٤٢	١٠.٦٠٨	٤.٢٠٦
١٩٢٦	١٠.٢٦٧	١٣.٨٥٥	١٩٤٣	٤.٧٠٥	١٠.٠٦٣
١٩٢٧	١١.٤٨٣	٣.٠٣٤	١٩٤٤	١٥.٥٥٢	
١٩٢٨	١١.٦٣٩	٢.١٧٨	١٩٤٥	١٥.٢٥٩	
١٩٢٩	١٢.٤٧٩	٥.٢٤٩	١٩٤٦	١٨.٧٦٠	
١٩٣٠	١١.٥٢٦	٤.٩٤٤	١٩٤٧	٢٢.٠٩٨	
١٩٣١	٥.٦١٢	٤.٠٧٥	١٩٤٨	١٧.١٦٥	

ويلاحظ من الجدول السابق أن الولايات المتحدة استوعبت نحو مليوناً مهاجر يهودي من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٢.650.000 والذين أتوا أساساً من أوروبا الشرقية ثم الوسطى، أي أنها استوعبت حوالي ٨٦ % من مجموع المهاجرين اليهود. وقد استقر نحو ٣٩٠ ألف مهاجر يهودي في أوروبا الغربية، ونحو ٢٠٠ ألف في باقي بلدان العالم، واستوعبت كندا نحو ٤ % والارجنتين ٩ % وجنوب أفريقيا ٢ % . ولم يستوطن في فلسطين سوى ٥٠ ألفاً، أي حوالي ٢ % من مجموع المهاجرين.

وقد استمر الوضع على ذلك في الفترة ١٩١٥ - ١٩٣١ أي قبل ظهور هتلر ، إذ استوعبت الولايات المتحدة ٥٥ % من مجموع ٧٦٠ ألف مهاجر يهودي واستوعبت كندا ٦ %، والارجنتين ١٠ % واستوعبت بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى ٩ %، وجنوب أفريقيا ٢ %، والبلاد الأخرى ٣ % ولم

يستوطن في فلسطين سوى ١٥ % على الرغم من أنه لم تكن توجد آنذاك قيود على الاستيطان فيها ولم يحدث أي تغيير إلا بعد إغلاق أبواب الهجرة إلى الولايات المتحدة ثم إلى بلاد الاستيطان الأخرى في أوروبا وأمريكا اللاتينية

وجنوب أفريقيا. وقد بلغ الاستيطان اليهودي في فلسطين ذروته في الفترة بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٩ ، حيث استوطن في فلسطين حوالي ٤٦ % من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٥٤٠ ألفا، ولم يستوطن في الولايات المتحدة سوى ٢٠ % وقد بلغ عدد المستوطنين الصهاينة في الفترة ١٩٣١ - ١٩٣٥ ، أي في أربعة أعوام، حوالي

147.502 (165.704 بحسب تقديرات الموسوعة اليهودية) وهو عدد يساوي عدد كل المستوطنين المو بالفعل والذين كانوا قد استوطنوا في فلسطين في خلال الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٠. وفي الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٩ ، هاجر 75.510 (تذكر الموسوعة اليهودية هذا الرقم على أنه ٨٦..٩٤) وشهدت الفترة بين عامي ١٩٤٠ ١٩٤٨١ تحولاً طفيفاً في نمط الهجرة إذ اتجه ١٢٥ ألف مهاجر يهودي من مجموع ٢٠٠ ألف .

أي ٤٢ % من مجموع المهاجرين، إلى الولايات المتحدة، واتجه إلى فلسطين ١٢٠ ألفاً أي ٤٠ % فقط. وقد أدى هذا إلى ظهور كثافة سكانية يهودية في فلسطين لم تكن موجودة قبل وصول هتلر إلى الحكم، فكان الفوهرر نجح في خلال ثمانية أعوام، عن طريق خلق الظروف الموضوعية لهجرة اليهود من أوروبا، في إنجاز ما لم تنجح الحركة الصهيونية والاستعمار العالمي في إنجازه في نصف قرن (١٨٨٢ - ١٩٣١)، أي أن الصهيونية الموضوعية البيئية أكثر كفاءة وفعالية من الصهيونية العقائدية. فقد هاجر تلك الفترة نحو ثلاثة ملايين يهودي من وطنهم الأصلي ولم تتجه سوى قلة منهم إلى فلسطين. ومع هذا، لا يمكن إنكار دور الصهيونية والاستعمار في خلق هذا الموقف الصهيوني البنيوي، والواقع أن الدول الغربية، بما في ذلك الولايات المتحدة، أوصدت بابها دون اللاجئين اليهود وغير اليهود بسبب ظروف الكساد الاقتصادي.

أما الصهاينة، فقد أبرموا مع النازيين معاهدة الهعفراه التي ساهمت في توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين. وقد سمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم ويمكننا أن نخلص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثل أي نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم، وإلى أن اليهود هاجروا إليها بسبب

عوامل الطرد الحادة في أوروبا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها ولعل الاستثناء الأساسي الآخر للنمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسينات، حيث قامت الحركة الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين وفي نفس الفترة، أدى إعلان الدولة اليهودية، ونشاط العملاء الصهاينة، وجهل بمض الحكومات العربية، إلى خلق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات

اليهودية

فى العالم العربى الإسلامى، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت فى فلسطين، وعلى أية حال، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين على أنها أيضا حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد. والهدف ليس خلاص الروح، بطبيعة الحال، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعى. فالعرب اليهود لم تمكنهم ظروفهم الحضارية والاقتصادية، ولا خبراتهم، من الهجرة إلى أوروبا والولايات المتحدة، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعى الذى فشلوا فى تحقيقه بالدرجة التى يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية. ويلاحظ أن عددا كبيرا من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك وبعد تصفية هذه الكتلة البشرية اليهودية، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده، أى يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التى أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل. ومن ثم، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتى تواجه مشاكل عميقة - من المنظور الصهيونى - لأن المهاجرين يغربون اتجاههم فى النمسا أو فى أية محطات انتقالية أخرى، وبدلا من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين وحينما هاجر يهود الجزائر فى عام ١٩٦٥، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن، ثم يهود إيران، فإنهم لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة، ويلاحظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضا إلى الولايات المتحدة، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا - ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط ويبلغ أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية فى الولايات المتحدة نحو ٧٥٠ ألفا، حيث يزيد عدد النازحين من إسرائيل إلى الولايات المتحدة على عدد اليهود الذين يذهبون إلى الدولة الصهيونية للاستيطان ويدل تدفق الهجرة اليهودية على وطن الاقتصاد الحر والفرص الاقتصادية بعيدا عن «أرض الميعاد» على أن حركات التاريخ وتركيبية النفس البشرية تؤكد نفسها على الدوام وتكتسح فى طريقها كثيرا من التحيزات العقائدية الاختزالية ولتزويد الكيان الصهيونى بالمادة القتالية اللازمة لاستمرار اضطلاع بدوره القتالى، أغلقت الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفيت حتى يضطروا إلى التدفق صاغرين إلى الدولة الصهيونية كما تمارس المنظمة الصهيونية شتى أنواع الضغط على ألمانيا لكيلا تفتح أبوابها أمام المهاجرين السوفيت الذين يقرعون أبوابها كما أنها تعلن عن شتى المغريات المالية للمهاجرين الجدد. وعلى كل بعد تدفق نصف مليون يهودى روسى على إسرائيل وليس الملايين التى تحدث عن الاعلام العالمى أى الغربى والعربى على مدار عشرة أعوام تقريبا، نضبت منابع المادة البشرية الاستيطانية فى شرق أوروبا خاصة العناصر الشابة الراغبة فى الهجرة والقادرة عليها وسيعود النمط القديم ليؤكل نفسه، أى تدفق اليهود على أرض الميعاد الذهبية الأمريكية، إلى أو أى أرض ميعاد أخرى تحقق لهم الحراك الاجتماعى.

ويدلا من تسمية الظواهر بأسمائها، تشير الادبيات الصهيونية إلى الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة أو إلى العالم المتقدم أو الحر بما يسمونه «الشتات الجديد» ونشير إلى ذلك بأنه «الدياسبورا الدائمة» .

الدياسبورا الدائمة Permanent

«الدياسبورا الدائمة» مصطلح قمنا بصفه لنصف أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم، إذ أنه على الرغم من كل الادعاءات الصهيونية ورغم استخدام مطلق الدياسبورا لوصف وضعهم، فإن غالبيتهم تؤثر البقاء خارج فلسطين فى المنفى. فالدياسبورا أو الشتات اليهودى مسألة طوعية وليست مسألة مرتبطة بعملية قسر خارجية. وحالة الدياسبورا أو الإنتشار هى حالة دائمة بغض النظر عما يحدث فى فلسطين بل إن اتجاه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها، أحيانا ينبع من حركات لاعلاقة لها بصهيون .

وفيما يلى جدول باعداد أعضاء الجماعات اليهودية، فى فلسطين المحتلة والعالم يدل على أن الدياسبورا حالة دائمة نهائية بالفعل

أعداد اليهود فى فلسطين المحتلة والعالم

سنة	عددهم فى فلسطين	نسبتهم لليهود العالم
١٨٨٢	٢٤ . . .	٪٠.٣
١٩٠٠	٥٠	٪٠.٥
١٩٢٥	١٢٢	٪٠.٨
١٩٤٠	٤٦٧	٪٢.٨
١٩٤٨/١٠/٥	٦٥٠	٪٥.٧
١٩٥١	١.٤٠٤	٪١٢.٢
١٩٦٥	٢.٢٩٩	٪١٧.١
١٩٧٥	٢.٩٥٩	٪٢٠.٩
١٩٨٠	٣.٢٨٢.٧٠٠	٪٢٥
١٩٨٥	٣.٥١٠	٪٢٧

أى أن ربع الشعب، اليهودى وحسب قد قرر الاستيطان فى فلسطين مما يعنى أن أغلبيته الساحقة قد أثرت العيش فى «المنفى» على الرغم من أن الدولة الصهيونية قد فتحت أبوابها على مصراعيها أمامهم كل هذا يعنى فى واقع الأمر أن المنفى ليس بمنفى . وأن أرض الميعاد والعودة ليست أرضا للميعاد أو للعودة غم كل الادعاءات الصهيونية .

